البرامكة

في التاريخ

بقلم

عبد الحليم عباس

الإهداء

إلى شباب العرب اليوم الذين يكافحون في المشرق والمغرب لتخطيط الوطن العربي الواحد وتحريره ووحدته فيلقون في سبيل هذا النفي والتشريد و القتل.

والى شباب العرب في الغد الذين سيكافحون ليملأوا هذا الوطن خيرا وحرية لا مكان فيه للخوف و الفقر والعبودية فيلقون في سبيل هذا ما يلقى هذا الجيل . . ليقدموا هذا الوطن بعد ذلك إلى الامة العربية الواحدة ، جيلا بعد جيل ، والى الأبد ، وطنا حرا كريما منيعا . . .

إليهم جميعا أهدي هذا الكتاب

المؤلف

مقدمة

هذا هو تاريخنا .

وهذا هو في عصوره الزاهية .

موزع بين الخير والشر ، ومزيج من الظلمة و النور ، والعدل و الجور .
و هو بعد أسلوب في الحياة ، و لون في الحكم ، لا نحسب أن أيا من المغالين بحبه، يتمنى لنا الأخذ به .

ولكن هذا الأسلوب دون مغالاة في الحب ، أو ذهابا مع العصبية كان بالقياس إلى أساليب الحضارات التي سبقته ، وجملة من الحضارات التي عاصرته و لحقت به ، اسروا مقبولا . فان فكرة العدل فيه كانت في المحل الاسمى من الاحترام و التقدير ، وان لم يأخذ بها الحاكمون كل حين ، بسبب أن " حرية الوطن " التي هي الضمان للعدل و لكل القيم الاجتماعية ، بدأت تضطهد ، وتحارب حتى الموت منذ أخذت حياة القائمين على الامر ، تغرق في الترف ، وحياة البذخ ، على نحو ما نقرأ في تاريخنا .
و مثل هذه الحياة المترفة حتى درجة البشاعة ، لا تجد لها مكانا في أجواء حرة طليقة .

وقد كان مقدور على هذه الحضارة ، أن تأخذ أحد السلبيين ،أما الذي بدأت تمشي فيه ، ولا حرية معه ، فعقباه التفكك و الانحلال ، ثم التهاوي تحت ضربات القوى الغازية الناشئة ، كما حدث لها . وإما السبيل الذي تنتعش فيه الحرية ، فتتجدد من شباب الحضارة جيلا اثر جيل ، ثم تفضي بالمجموعة العربية إلى حياة أفضل ، وحضارة متجددة خلاقة لا شيء يحول دون استمرارها على شكل من الإشكال لننعم بخيراتها _ إلى اليوم _ نحن الأبناء .

ولكن الحضارة العربية ، آثرت المشي في السبيل الأول . . . إلى نهاية الشوط المقدور ، فغلبت . وانهارت ، ولا يزال المجتمع العربي و الإسلامي ، يعاني وهو ينهض، الألم المبرح من آ ثار تلك الجراحات .

لم يستطع المجتمع العربي ، وهو يأخذ من الحضارات التي سبقته ويتقوى بهذا الأخذ ، إذ يقيم حضارته منها _ أي من هذه الحضارات _ متفاعلة مع حضارته الناشئة الموروثة ، إن يدنو من حضارة يونان من ناحية آفاقها التي تتفتح على ضمان حرية الإنسان ، ولهذا لم ينشأ على طول خط السير الذي مشت فيه هذه الحضارة ، عبر المئات من السنين ، المدينة اليونانية ، بأنظمة حكمها المختلفة الإشكال و الأنواع ، والتي يسكنها أناس أحرار أو متطلعين إلى الحرية .

و السبب في هذا أن الفئة المتحكمة في هذا المجتمع ، حاربت الفكر اليوناني من نواحيه هذه ، ولم تأذن بمقاربة نتاج هذا

الفكر إلا بالمقدار وعلى الوجه الذي لا تتضرر فيه مصالحها . ويقول " بارتولد " إن بعض ما عرض بما يتصل باليونان من النواحي السياسية كان يجيء على وجه أقرب للخيال منه للواقع كما حدث " للفارابي " وهو يعرض للمدينة الفاضلة .فكانت دعوات الإصلاح في هذا المجتمع على الغالب غير محددة الهدف ، ولا واضحة السبيل والغاية ، فهي تستهدف على ألسنة دعاتها محاربة الجور ، وإقامة الحق ، أما كيف ؟ وعلى أي أسلوب ؟ وما هي الحيطة التي تضمن للحق أن يرسي قواعده ، ولا تسمح للجور أن يعود ثانية ! فأشياء لم تكن في أذهان المصلحين .

وقد قلت في هذا الكتاب وأنا أتخطر هذه الفكرة (لم يعرف القاضي أبو يوسف ولم يعرف سواه الأسباب ، التي تزيل الظلم من أساسه ، ذلك لأن العرب لم يعرفوا نظاما للحكم غير النظام الذي هم فيه ، فغايتهم يوم يتأزم الوضع خرقا ، أن يبحثوا عن إمام بدل إمام ، وليس عن نظام بدل نظام) .

ويعلل " هانز شيدر " العالم الألماني ، ارتداد الفكر الشرقي عن الاستفادة من يونان بأن الشرق حينما واجه الحضارة اليونانية كانت تقاليده من الدين و السنة قد تحجرت على شكل لا يسمح بالتطوير في خارج حدودها لأنها أشياء أزلية و مقدسة .

ويرد على هذا القول .

إن حرية المواطن وهي المعنية بكلام " شيدر " وان الشرق بتقاليده المتجمدة لم يستطع أخذها عن اليونان ، هي المعنى

البسيط الذي تقدسه التقاليد العربية فلا شيء اغلي على هذا العربي البدوي منها ، وان يستمتع بها في إطار مصلحة القبيلة ، ولما جاء الإسلام اعلي من شأنها إلى الحد الذي يواجه المواطن المسلم العادي ، الخليفة الثاني ، فيقول إليه ، لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا فلا يثور به الخليفة ، و حاشاه وحاشا دينه وانما يحمد الله على ذلك .

وبقيت هذه الحرية كذلك من الرفعة والإعزاز في نفس كل خليفة ، تغلبه على هواه نزعة الدين . غير إن هذه البساطة في فهم الحرية ، تعقدت تحت هذه الحياة المترفة التي جاءت من الحضارات الأخرى التي أخذ العرب يأخذون بأسبابها و يحيون حياتها ، لا صيما حضارة فارس ، فأصبح لهذه الحرية معنى آخر .

هذا المعنى هو الطاعة والخضوع .

فهذه التقاليد المتجمدة ، التي ليست من تقاليد العرب ، ولا من شريعة الإسلام هي التي باعدت ، تحت مشيئة الحاكمين ، بين الفكر العربي ، وبين الفكر اليوناني ، وحالت بينه وبين الاطلاع على أساليب الحكم الديمقراطي ، التي تحيط " حرية المواطن " فليس من مصلحة هؤلاء الحكام ان يطلع المجتمع العربي على شريعة صولون ليروا كيف كانت تحدد ملكية النبلاء للارض إبعادا للجور ، و نهب أموال الناس كما حدث " في التضمين " الذي تفشى في المجتمع العربي ، وليس من مصلحتهم أن يعرفوا كيف حاول " كلينتس " ان يمنع قيام حكومة الطغاة

وذلك بأن ينفي المواطنون _ بالاقتراع _ كل عام الشخص الذي يرون فيه خطرا على حريتهم ، وليس من مصلحتهم في النهاية ان يعرف الناس ان هنالك أشياء اسمها مجالس شعبية تصادق على الشرائع ، و تعيين القضاة والحكام .

وتعلل لهذا المنبع بالحجة إياها " الزندقة " في حين ان هذه الغيرة على الدين لم تمنعهم من الاطلاع على الزندقة ، وأحاديث المتزندقين . في الحضارات التي اطلعوا عليها .

لهذا كله التوت حضارة العرب ، و سارت في السبيل الذي أشرنا إليه ، فكان من هذا التاريخ الذي نعرض أطرافا منه في هذا الكتاب .

ولقد عرضناه عرض المنصف لا نستر من شره ، ولا نغالي في خبره فهو تاريخنا ، و حديث آبائنا ، والآباء يسرهم أن ينتفع الأبناء بما خلفوا من سير ، لا أن تفقدهم هذه السير صحة الحكم والانتفاع بها .

غفر الله لهم ونفعنا بتاريخهم .

عبد الحليم عباس

كنت وما زلت يستهويني الحادث في التاريخ وفي الحياة بقدر ما فيه من شعر . ليس للمؤرخ أن يطيل مجادلتي ، يزعم هذا للتاريخ فلا يصح أن أخلط به غيره ، لن أرعوي ، تلـك طبيعتي . لا أستطيع و أنا الإنسان الضعيف أن أبدل منها . .
له على واحدة ، فليناقش بها وليشتد ، وهي أني ما سمحت لحبي للشعر أن يجور على الحقيقة التاريخية مهما كانت جافة ومهما تمنيت أن لو سرى في برودتها دفء من العاطفة و حرارة الفن .

الصدق في الرواية جمال و شعر ! . .

القسم الأول

البرامكة في حياة الرشيد

هكذا

تقوم القيامـــــــــــــــة

عن يا ابا زكار (*) ، فالليل ساج ، والنفس التي اضـــطربت مـــن ميـــل سيدي الرشيد عنا وانحرافه وتعلله عن حضور وليمتي له بعسفان هذه المرة ، على غير عادته اثر منصرفه من الحج عاما بعد عـــام ، سكنها هذا الفضل الذي أسبغه علي اليوم ! انفرد بي عن الحاشية يقارب فرســـه مـــن فرســـي ليضع راحته الشريفة على كتفي ثم قال : انها ليلة كنت أحب ان اؤثرك بها ، أسمع حديثك واروي النفس من منطقك لولا إني _ وبسم _ مع الحـــرم وزاد في البر _ ابره الله _ فطلب إلي ان أكون في جريرتي هذه على مثل حالـــه ، أنعم بالسماع والقيان .

وتطلقت أسارير وجه أبي زكار ، ولم يخف عليه ان الوزير يفضي إليه بسره ليسره ، فقد كان منقطعا إليهم كأنه واحد من آل برمك . و هو هـــو جعفر في عذوبة خلقه ورقة شمائله ، وهم آل برمك : جملة واحـــدة فـــي سماحة أخلاقهم و رجاحة ألبابهم ، أن اخذوا بيد واحد لشعره أو لفنه ، فلا يزالون يفضلون عليه ، ويقاربون ما بينهم و بينه ، حتى يخلطوه بأنفسهم . . . فلم يجد ما يجيب به الوزير الصغير ، غير ان يرفع رأســـه للسماء بالدعاء ويسارع ليجيب رغبته فيمر بأنامله علـــــــــــــــــــى

(*) مغن كان مختصا بالبرامكة .

الأوتار المشدودة ، ثم يضرب عليها بالريشة فتنطلق الأنغام تعلـــو وتهـــبط ، وتتسرب في النفس لينة تثير فيها مزيجا حلوا من المسرة ، تلتف بحالة نفـــسية غامضة فيها أظلال من أعقاب خيبة ، أو الدنو من خيبة ، ثم يـــأتي النـــشيد مفسرا لهذه الحالة :

فلا تبتعد فكل فتى سيأتي	عليه الموت يطرق أويغادي
وكل ذخيرة لا بد يومـــا	وان طالت تصير إلى نفاد
ولويفدي من الحدثان شيء	فديتك بالطريـــــق وبالتلاد

ويرتفع الصوت ، ولا يزال من حلاوة الترديد ينسخ الإظـــلال الكئيبـــة ، حتى ليوهم الجوارح الهاشة تحت وقعة ان موت هـــذا الفتـــى الـــذي يفـــدي بالطريف وبالتالد هو موت من نوع آخر ، ليس فيـــه حـــزه المـــوت و ألـــم الحشرجة . . . هو بعاد . . .

طرقك الموت الذي يذكره . . .

خمد الصوت فجاءه ، وانقشع بمثل لمح البصر ما بعث الغناء و الشراب من لجذاذة ، فإذا كل ما في النفس ذعر ترتعش منه كل جارحة وتهاوت الاكؤس و تناثرت ضمائرهم الريحـــان ، وشخصت الإبصار بالذي أخذ الباب ، وفـــاه بهذه العبارة أعلى خدام الرشيد منزلة ، مسرور الكبير ومن ورائه رجال فـــي نظراتهم معنى القتل .

اجب الخليفة . . . دعني ادخل البيـــت فأوصـــي . أمـــــــــــــــــــــا الدخول فلا ، ولق الوصية . ولما فرغ منها تره من مجلسه ومضى

به إلى منزل الخليفة ، وفي ركن منه أوثق قيده . وعاود جعفر شـــيء مـــن منطقه ، فاقنع مسرورا إن يناظر الخليفة في أمره _ مرة _ قبل قتله ونجـــح في إقناعه إن يعود إليه ثانية ، عاد بعدهـــا مسرور مضطربا يرتجف خوفـــا من يمين الخليفة ، أن عاد إليه ثالثة لقتله أولا . ولم يجد معه منطق جعفر ، ولا الحافه في الرجاء إن يسمح له _ وله حكمه _ إن تقع عينـــه علـــى عـــين الخليفة . . . فجيء بالرأس يشخب دما . وبقيت من صورة غـــضب الرشـــيد بقيات لم يذهب بها الدم المسفوح ، فأمر إن ينحدروا بالجثة والأس إلى بغـــداد ويدفعوهما إلى قائد هرثمة .

وجاءوا بها سحرا ، وبغداد كما هي تهوم في حضن السهل الجميل ، فيهـــا بقيات مقاصير تزهر ، لم ينم أهلوها بعد ، لا يزال في الكؤوس بقيـــة وفـــي الأعواد رجع أنغام ، ودجلة دخلت من قوارب مختلفة الـــشكول ، حاشـــا ، أو آخر زلال تحمل نشاوي الكأس والشعر والجمال .. وفي حـــي مـــن احيائهـــا المعروف بالاشماسية كان يرى الرائي حركة غير عادية ، أن جندا أخذوا أفواه الدروب ، وان قصورا بعينها كانت إلى قبل هذه الليلة محجبة الزوار وكعبـــة القصاد أما الليلة فالدنو منها حرام .

وفصلت الجثة – المحمولة على بغل بغير اكاف – وشطرت شطرين ، وعلقت مع الرأس على ثلاثة جسور .

ليلة لها ما بعدها ... لقد تخطاها ألف عام ونيـــف ، وتتخطاهـــا الآلاف مـــن الأعوام ، وستبقى خالدة ما بقي أدب العرب ،

وما بقي تاريخ الإسلام ، وكم شهدت هذه المدينة من مصارع الوزراء والولاة والأمراء ، وكم علق على جسورها من جثث ، وأودعت خزائنها مـن رؤوس منزوعة عن هذه الجثث ، أما مثل هذا المصرع وما سيتبعه غدا من نكبـات ، فقد جلّ عن الوصف وتعالى عن النظير والشبه .

وطلع النهار فإذا الشمس هي ، والمدينة لم تتبدل ... ويتعـالى النهـار فـإذا المدينة ليس فيها غير جثث الليلة الفائتة وحديث الرجل المـصلوب ، وتخـب ركائب البرد إلى خراسان وما وراء خراسان ، ومصر ومـا وراء مـصر ، لتنقل إلى كل مكان فـي أطراف هذه المملكة العريضة الواسعة حديث تلكـم الليلة .

وطلع النهار ، فاقتحم الجند القصور يعيثون فيها : يمزقـون سـتور الـديباج وينهبون آنية الذهب ، ويبرزون النساء إلى قصر البانوقة .

ويجيء النبأ إلى والد الرجل المصلوب – يحيى بن خالد – وقـد دلـف إلـى السبعين أو تجاوزها بقليل ، ويرتمي به رجل ياهث فيهتف بـه ، وقـد كـاد يخرجه الفزع عن طوره . ويك حدث فما اكتتم خير ، ولا استتر شر .

" قتل الخليفة ابنك جعفر " !...

" وهتكت القصور وأبرزت النساء " !...

فرفع رأسه والتفت إلى جليسه ، ورمى بالقلم ، قبل لحظة كان يصرف به شؤون مملكة الإسلام في زاهي دولتها وناضل ايامها ، وقال :

" ايه هكذا تقوم القيامة " . . . ولم يزد .

ليلة كذا تقوم القيامة ، ومن إماراتها الكبرى _ لو إن القرن الثاني للهجرة ميعادها _ إن يقتل جعفر وتدول دولة البرامكة .

وسيق الشيخ ومعه أولاده إلى السجن ، حيث أطبق عليهم رتاجه ، وحيل بينهم وبين دنيا الناس .

ألبس الذل بعد لبوس الجاه والسلطان .

وعانوا النكد وبرح الأسار ، وأعوزتهم اللقمة _ بعض الحين _ وهزتهم البرداء وأحوجهم الكساء ، و قد كانت لهم الدنيا ، يميطون النكد ، ويفكون العاني ، ويجيرون على السلطان ، ويمطرون الجود ، ينتظم خلائق شتى وقبائل متباعدة المزار .
وتحاشاهم الناس ، وتجافاهم الإخلاء ، ومن قبل كانت تشد إليهم الرحال ويخطب ودهم ذوو الإخطار .

أغماضة فلا جاه ولا سلطان ، ولا نكد ولا ذل إسار ، يفتح الرتاج وينسرون منه إلى حفرة تمتنع على كل عرض من عروض الحياة ، والذي سلم تسلمته الدنيا ، ففي جوانبه جرح

من الذكرى . . . وكل حي فإلى انتهاء ، فليحق بهم من أذاقهم الخوف وألبسهم الهوان . . . ثم تأخذ حياة المملكة الإسلامية وجهتها ولكنها إلى أمد بعيد فـــي القرون تلتفت إليهم الحين بعد الحين لتأخذ عن سيرتهم ولترى . . وجه العبرة في مأساتهم .

لم يكن مقتل جعفر ونكبة البرامكة _ في مسمع تاريخ الإســلام _وزيــرا يقتل وعائلة تنكب وإنما كان حدثا كالظواهر الطبيعية التي يحار الإنسان في تعليلها ، فلقد كثرت البلبلة ، وما فتئت تطرح الأسئلة لــم وفــيم ؟ واختلفــت الأجوبة وتباعدت على قدر السائلين وفهومهم . حار النـــاس فـــي عهــدهم ، وخلفوا للناس وراء عهدهم مثل حيرتهم . وانك لترى الحيرة ماثلة لا علـــى لسان مؤرخين وإنما على لسان مؤرخ . من عهد البرامكة إلى نـــشأة الدولـــة العباسية وزراء كثيرون . منهم من قتل ، ومنهم من تناول الموت بكأس سم ، ومن وراء عهد البرامكة إلى أجيال بعيدة ، والقتل على أبشع صورة ، والسجن والتشريد نصيب هذه الفئة من الناس لكن التاريخ يكاد يضع لكل حادث أسبابه، إلا في هذه ، ومرد هذا ، الفترة الطويلة التي حكم بها هؤلاء ، ثم سعة ورفاه الدنيا التي حكموها ، ثم لون هذا الحكم ، فقد امتزجـــت فيـــه الإدارة وحـــسن السياسة بأريحية الشعر .

كان البرامكة شعراء و وهم ينصحون الخليفة ويشيرون عليه ، فلا يأخـــذون باللجاج مخافة أن يرج به العناد ، وإنما يضربون له الأمثال.

وكان شعراء ، وهم يقودون الجيوش فلا يضلهم زهو الرئاسة ، ولا يخرجهم بطر القيادة ، وان يروا أن النصر بلا اراقة دماء هو النصر المفضل الأمثل .

وكانوا شعراء ، وهم يعطون فيغنون ، ثم يطالبون من أعطوه بحسن السمت وإظهار النعمة .

ولن تعدم في الصغير والكبير من أعطياتهم _ وهي لا تحصى _ نفحة الشعر الأصيل ، ولن تعدم في الصغير والجليل من أعمالهم وثبة الخيال السديد.

قيل ليحيى ، وقد صارت اليهوزارة ملك الرشيد : " لو استبدلت بحاجبك حاجبا يليق بالمقام و يتناسب وجلال الوزير " ! فقال : " هيهات ! هذا يعرف أصدقائي القدماء " .

وأمر ابنه الفضل الخادم له بمائة ألف درهم ، فبلغ أباه الخبر فقال له كالمعتذر هذا رجل صحبني وأنا لا أملك شيئا . ثم تمثل :

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا　　　من كان يألفهم في المنزل الخشن

واشترى جعفر جارية بالمدينة ، بعشرين إلف دينار ، فلما رآها أعجب بها وقام ليأخذها ، فقالت لصاحبها : رو ملكت منك ما ملكت مني ، ما رضيت بأن أفارقك . فوهبها له جعفر ، وجعل الثمن نحلة للعروس .

فليست الغرابة أن يذهل الناس لمصابهم ، وإنما الغرابة أن لا يصيبهم مثل هذا الذهول ، في زمن كان الشعر فيه يتحكم بأقدار الناس . فلا غرو أن تمر سيرتهم وتجتاز عصر الشعوبية ، فلا تجد من جماعة العرب المتعصبين لجنسهم ، والزارين على ما عدا جنسهم من أجناس ، إلا التقدير والإعجاب بهذه العائلة الفارسية .

والشعر إذا واتته قدرة ، وتجسد خلقا سمحا لا معاضلة فيه . ووفاء لا زهو ولا ترفع معه ، وكرما وأريحية ، كان أثيرا لكل نفس، عزيزا على كل قلب وهكذا كان الشأن مع البرامكة .

وكيف قدر البرامكة على هذا ؟ قدروا عليه لأنهم وزراء في الدولي العباسية . وجائتهم النكبة _ أيضا _ لأنهم وزراء وفي الدولة العباسية فالوزراء في هذه الدولة هي سلم المجد . . .
و النكبات .

* * *

المجد والنكبات

الوزارة

الوزير لفظ قديم في العربية ، قبل حديث الأموية والعباسية ، ولكن اللفظ لم يحدد معناه ولم يقصر على هذا المعنى الـــــذي نقرأه في التاريخ قبل نشوء الدولة العباسية و قبل أن تدخل على إدارة المملكة الإسلامية السهلة البسيطة ، هذه النظم المعقدة في الإدارة والخراج ، مقتبسة عن حضارات شتى ، أهمها حضارة الفرس و روما الشرقية . وحضارة الفرس _ هنـا _ اكبـر لقـرب الجوار و كثرة الاختلاط والامتزاج ، فبرز جمهر ، وزير أنو شروان ، عاش في وزارة بني العباس .

وتقول النصوص القديمة أن اقرب معاني هذا اللفظ مأخوذ من " الوزر " أي الثقل ، فكان الوزير يحمل الإثقال . ولعل هذا المعنـى هـو الـصوب ، لأن معنى النصوص القديمة يشترك مع دلالة التاريخ ، فالوزير ينوب عن الملـك _ الذي هو الخليفة _ في هذه الفترة من الزمن ، في حمل أعباء هـذا الملـك _ ويخف حمله و يثقل بقدر ما تقوى أكتاف الخليفـة علـى حمـل الأعبـاء والنهوض بها و في الفترة الذهبية _ بقوتها وجمالها وجلالها _ وواضح أنها كذلك بالنسبة إلى عصرها ، وهذه العصور السحيقة في تـاريخ الحـضارات، وليست كذلك بالنسبة إلى عصر متحرر _ و هي التي تمتد من مفتتح الدولـة إلى عصر الرشيد، أن الخليفة الذي أراح هذا الوزير وقويت الواحة

العريضة على حمل كل عبء ، هو المنصور و ما عداه فلم يكن يمنعهم شيء عن أن يرموا بالحمل كله _ ولو إلى حين _ على ظهر هـذا الـوزير و لـو تقوست . . الخليفة المهدي أعجبه ذكاء و عقل يعقوب بن داود ، فقال وكتب إلى الناس " إنه أخي ووزيري " ثم رأى كاهل وزيره عبلا و ظهـره صـلبا متينا ، فطرح عليه كل أثقال الملك ، و راح و قد تحلل مـن الأعبـاء يـنعم بالشاديات ويلذذ نفسه بالنغمات :

بنـي أمية هبوا طـال نومكـم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الزق و العود

أول وزراء هذه الدولة _ أبو سلمة الخلال _ منة الموالي طبعا ، أنفـق على الدولة الناشئة من ماله ، و قام بـدعوتها وخليفتهـا الـسفاح مـستترا لا يستطيع الظهور ولما توطد الملك اتهم بالميل للعلويين _ ولعل التهمة كانـت صحيحة _ فاغروا به أبا مسلم ، فقتل الرجل غيلة . . . لم يغني عنه كرمـه وعقله وفصاحته وعلمه بالخبر و الشعر ، ولم يمنع عصر الإرهاب والقتـل غيلة الشاعر سليمان بم مشاجر البجلي من إرسالها صرخة مجلجلة :

إن الوزير وزير آل محمـــد	أودي فمن أشناك كان وزيرا
إن السلامة قد تبين وربمـــا	كان السرور بما كرهت جدير

ثم جاءوا بعلي بن الجهم ، ومـات الـسفاح قبـل أن يقتلـه ، ولكـن المنصور و في نفسه من الجهـم أشـياء ، سـقاه سـويق اللـوز . . ومـا ذنبـــه إذا كان سويق اللوز يميت ! ثم استوزر المنصور أبـــا

أيوب المورياني . وزير كفؤ ، خف على قلب الخليفة ، فكان يأنس به الإيناس كله ، ولا يرى المجلس يأخذ بهجته حتى يكـــون فيـــه . ويـــذكرون أن زوج الخليفة اتخذت له مجلسا في الصيف وتأنقت فيه وفي طيبه و ريحانه .
فقال لها : ينقص هذا المجلس شيء ، فقالت الزوج العطوف هو لـــسرورك ، فأي شيء تأمر به يا أمير المؤمنين ؟ فقال المورياني يؤنسني بعذب حديثـــه . فجيء به و أقام يومه عنده . ويقول أن له على المنصور يدا سابقة ألقى عليـــه نفسه وحماه بها ، و هو يضرب في مجلس سليمان بن حبيب والي البصرة في أعقاب الملك الأموي .

ويسعد المورياني عند رجل الدم المنصور ، ولكنها السعادة التي يتخـــوف عليها في كل حين . . حينما كان يبعث إليه وهو في أوج حظوتـــه عنـــده ، يمتقع لونه ويهرب الدم من أطرافه ، ويقول لمن يلومه سأضرب لكم مثلا :

قال البازي للديك : ما أقل وفائك! يطعمك أهلوك بأكفهم و تنشأ في بيـــوتهم حتى إذا كبرت ، جعلت ليدنو منك أحد إلا وهربت ، و أنا يجيئون بـــي ، و لا أقوم بينهم إلا قليلا ، ثم يرسلون بي إلى الصيد فاجيء به وآتيهم . . قال الديك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم ما رأيت من الديكة كنت أقل وفاء منـــي . . وأنتم أيها اللائمون لو رأيتم منه ما رأيت لم تلوموني من الخوف على عظـــم منزلتي . و الديكة هم الوزراء يشوون على سفود الوزارة في هذه الدولة . ما أصدقه مثلا ! . .

سعد مع المورياني أهلوه ، أخوه و بنو أخيه ، ثم تجيء

النتيجة المحتومة الديك على السفود ! يقتل المورياني ويخلد الأهل السجون ، والآمال كما هي العادة للخليفة .

وجاء المهدي ، وجاء معه وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، أكفأ الوزراء وأقدرهم في الحساب و على تصريف الخراج ، وضع فيه كتابا كان المرجع ، ونقل الخراج المقرر إلى المقاسمة على الغلاب . و زهت دولته وعلت مكانته ، فجيء بالسفود ووضع على النار و كان المهدي مرحوما فلم يقتله و لكنه طلب إليه أن يتقرب إلى الله بقتل ابنه عبد الله على الزندقة و أدرك الحاضرون الشفقة على الشيخ فرجوا الخليفة أن يعفي الوالد من قتل ولده ، فقبل رجائهم وقتله الجلاد على مرأى من أبيه ، ثم أقصى الوزير عن دست الحكم وأبعده عن الوزارة وكما تدين تدان ، فالذي أغرى بمعاوية بن يسار هو الربيع بن يونس . وزر للهادي فسقاه شرابا أمهله أياما ومات .

ثم جاء الرشيد وجاءت وزارة البرامكة .

بين هؤلاء الوزراء الذين ذكرنا مصائرهم ، وزراء لم يصبهم أذى و لم يدركهم النصيب المنتظر ، وذلك إما لأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يخشى امتداد نفوذهم ، وإما لأنهم لم تطل مدتهم في الوزارة فتوفي خلفائهم ولم يستوزرهم من جاء بعدهم . و قبل أن نعلل هذه الظاهرة _ في تاريخ هذه الحقبة و لربما في الحقب التي تلتها أيضا _ نشير إلى شيء أشار إليه كل مؤرخ ، وعلله بذات السبب _ أيضا كل مؤرخ ، وهو أن هؤلاء الوزراء كان موالي و فرسا ، والسبب هو أن الفرس

أقدر على إدارة سياسية هذا الملك_ بما هيأت لهم حضارتهم الـسالفة _مـن أخوانهم العرب ، ولىنهم أيضا الجماعة التي تطمئن إليها الطبقـة الحاكمـة . فقصة اعتماد العباسيين على الفرس ، وان ملكهم قام على نصرهم ، ومن ثـم عدم اطمئنانهم للعرب ، قصة معروفة لا تحتاج إلى إعادة فلا جرم _ بعـد هذا _ إن كانت الوزارة وهي أعلى و أشرف منصب في الدولة ، مقـصورة عليهم . أما السبب في هذه النكبات المتوالية على أولئك الوزراء فيحتاج إلـى شيء من التفسير و الإيضاح .

فسلطة الوزير هي سلطة لا حد لها من نظام أو عرف غير الحد الذي يراه الخليفة . يستطيع الوزير أن يعزل الولاة _ باستشارة الخليفة ورأيه طبعـا _ وهو قادر على توجيه هذا الرأي وفق هواه و مشتهاه ، وما الولاة فـي هـذا العصر ؟ أنهم ملوك على خراسان و سورية و مصر وشمال أفريقية وما إلـى هناك من أقطار وممالك فكان هؤلاء الولاة أو الملوك يخطبون وده و لرضـاه بالثمن الباهظ . فهو على هذا ملك الملوك ، وليس في الدولة من يعلـو عليـه غير الخليفة .

وقد عرفت الدولة العباسية لونين من الوزارة ، الأولـى وزارة التنفيـذ و الثانية وزارة التفويض . فوزارة التنفيذ يكون أمر الوزير فيها مقتصرا علـى تنفيذ أوامر الخليفة ونواهيه أما في وزارة التفويض وهي التي يفوض ، فيهـا الخليفة الأمر إلى الوزير ، فله أن يفعل ما يشاء ، يولي الولاة ويعزلهم غيـر أن حكمه في العزل لا يجري على الذين ولأهم الخليفـة . وإذا كـان هـذان النوعان من الوزارة هما إلى التعامل ، وليسا إلى أشياء مكتوبة مقـررة ،

فليس لهما من ضمان غير رضا الخليفة ففي وزارة التفويض نـرى الـوزير يعتمد على مشورة الخليفة في تنصيب الولاة وعزلهم ، ولكنها مشورة قـد لا تدفع امرأ مقررا كما كان الشأن في كثير من الأمور مع البرامكة .

ولهذا فقد كان هؤلاء الملوك _ أعني الولاة _ يتقربون من الوزير أكثر من تقربهم من الخليفة ، وقد ذكر جلة المؤرخين هذه الحكاية التي وقعت لواحد من البرامكة وان اختلفوا فيمن هو هذا البرمكي أهو الفضل أم أبوه يحيى ، ولـيس في الحكاية ما يتعارض و منطق العصر ، وأرجح انها إن وقعت فمع الفـضل لان كرمه تجاوز كل حد و أربى على كل سرف .

قال ابراهيم الموصلي : شكوت للفضل أن الخليفة حبس يده عني ، وقلت له هب لي دراهم فقال لي : ويحك يا ابا اسحق ما عندي مال ارضاه لك ولكـن ها هنا شيء : هذا والي مصر قضينا له حاجة فوجه ألينـا بـصاحبه ومعـه ثلاثون ألف دينار جاء بها ليشتري لنا فيها شيئا ، فسأقول له غدا _ اشتر لنـا جارية من عند ابراهيم وحذار أن تبيعها بأقل مما ذكرت . و في غـد جـائني هذا الصاحب وساومني الجارية و دفع إلي عشرين ألفا ، فداخلني الطمع فبعتها ، ولما سألني الفضل ذكرت أني بعتها بعشرين ألفا _ إذ عـاجلني الطمـع _ فضحك وقال سيغدو عليك صاحب خراسان ومعه خمـسون ألفـا ، و هـاك جاريتك ولا تنقصها هذا الثمن . و حدث لي ما حدث مع صـاحب مـصر و بعتها بثلاثين و حصل لي منها خمسون إلف دينار.

وليس في هذه الحكاية واختلاف ذكر الولاية والمنعم فيها ، أهو الفضل أم والده ، ما يمنع من قبولها وتصديقها ، لأنها ليست خارجة عن قدرة البرامكة أولا ، ولا عن كرمهم ثانيا ، و لا عن سوء العصر ، و طريقة تعامله ثالثا ، و لكن ليس كل الوزراء البرامكة في قدرتهم وسلطانهم ، و مع هذا فإن لغيرهم من الوزراء من السلطان ما يرغم ولاة الأمصار على التقرب منهم . ولقد أعطى يعقوب بن داود الربيع بن يونس مائة إلف دينار على أن يعمل له عند صاحبه الهدي ليوليه الوزارة ، و تم له ذلك و هو ثمن ليس بالباهظ بالقياس لما يستطيع أن يجنيه الوزير من منافع الوزارة ، فقد ذكروا أن رجلا من الأهواز جاء الوزير _ المورياني _ و شكا إليه أن ضيعته بالاهواز يثقل عليها حمل الخراج ، و هو يرجو أن يهبه الوزير اسمه بمائة ألف درهم مساناة ، " أي في السنة " فقال قد وهبتك اسمي ، فلما حال الحول ، جاءه بالمائة إلف لا تنقص درهما ، فقال له لأي شيء هذا ؟ وكان قد نسي الحادث ، قال هو ثمن اسمك ، فلما انصرف الجل بكى المورياني ، فقال له أهله : ما يبكيك ؟ قال ويلكم إن امرأ بلغ في اقباله هذا فكيف يكون ادباره .
وإذا بلغ هذا من قدرة المورياني و هو وزير الرجل اليقظ الحازم المنصور ، فكيف تكون قدرة غيره عند من ليس لهم يقظة المنصور وحزمه ، و تفقد أحوال رعيته لئلا يبلغ به العسف ، المبلغ الذي يدفعون معه مثل هذه المبالغ ليدفعوا أجورا أكبر .

كان يؤتي الوزير من هذه القدرة ، فهي تغري الخليفة فيه ، إما خوفا من امتداد نفوذه وأن ينحرف هذا النفوذ فيضر بالملك ويحدث فيه حدثا ، و إما طمعا بالثروة التي يكون الوزير جناها

و أكثر منها . و إذا كان حديث الثروة مما لا يليق بالخليفة أن يصرح به فقد كان يتعلل عليه بالسبب الأول وينشره بين الناس .
والعائلة التي كانت تنافس العائلة العباسية و تطمع في الخلافة هي العائلة العلوية أحفاد علي رضوان الله عليه ، فسرعان ما يتهم الوزير ، بالميل إليهم وينشد الخليفة سببا آخر مبهما تهمس فيه الشفاه حتى يتصل بالعامة ، الذين هم الرعية فيجده في حديث الزندقة و الإلحاد ، وليس ما يمنع هنا أن يكون حديث الميل للعلويين _ في بعض الأحيان _ حديثا صادقا ، و لكن ليس هنا _ أيضا _ ما يمنع أن يكون حديث الطمع بثروة الوزير حديثا صادقا فقد انتشرت المصادرة و بدأت بها الدولة في مطلع تاريخها : العامل يصادر الرعية والوزير قد يصادر العامل ، والخليفة يصادر الجميع العامل والوزير .

ومن هنا كان هذا المنصب من مناصب الدولة حبيبا مرموقا بغيضا ، حبيبا لهذا المجد والسلطان الذي يلحق به ، بغيضا لهذه النتيجة التي تكاد تكون محتومة . سحر و خيال و مجد ينطح السماء بروقه ، و في لمحة و أغماضة جفن ، إذا المجد عفاء و من يدركه الحظ فسعيد إن نجا برأسه ليخلد في أطباق السجون .

و يجمل هذه الحال الشعر و يوضحها أكثر مما يوضحها التاريخ ، فالشاعر الكوفي ابن حبيبات يقول بعد قتل أبي أيوب :

قد وجدنا الملوك تحسد	من أعطته أزمة التدبير
فإذا ما راؤا له النهي والامـــ	ــر أتوه من بأسهم بنكير
أسوأ الناس حالا لديهم	من تسمى بكاتب أو أمير

ويؤثر البعض السلامة فيعاف أمجاد الوزارة . عزف عن قبولها أحمد بن خالد الاحول ، ولما أصر المأمون عليه رضي ، شرط أن يعمل عملها ولا يتسمى بأسمائها .

ويجيء مع حديث القدرة و الثروة حديث الأصدقاء والأعداء . . وكثرة الأصحاب وعلو أقدارهم و ضخامة إخطارهم . فهي تجني عليه إذ يهمس أعداؤه في إذن الخليفة انه بهؤلاء الأصحاب قادر على أن يحدث في المملكة إحداثا .

جعل الربيع بن يونس جعلا كبيرا لا حد خدام المهدي ، أن ساير الوزير معاوية بن يسار وهو داخل على الخليفة ، وأراه _ أي الخليفة _ كأنما عينه على السيف ، فان سأله الخليفة _ وسيسأله لا محالة عن مدلول هذه الإشارة قال له : هذا رجل وتره أمير المؤمنين في ابنه بالأمس ، ولا آمنه على الخليفة وهو شاكي السلاح . ففعل الخادم . . . و ذهبت هذه الإشارة بالأيام القليلة التي تبقت للوزير ، إذ أمره الخليفة أن يلزم بيته .

وكثيرا ما يطول الصراع بين الوزير و فئة الكائدين له ، ويلبس لهم مثل لبوسهم : كيدا يكيدا ، ودسا بدس ، وخبثا بمثله . كان رحال البلاط يكيدون ليعقوب بن داوود عند صاحبهم و صاحبه المهدي ، و إذ يشبعون كيدا و يظنون أن الخليفة سينحرف عنه ويوقع به وقعته ، يجيئه يعقوب مع الصباح ولايزال يحركه بحديثه عن الجواري الحسان و الكواعب الخرد حتى يضحكه ، فيحار أعدائه فيم حدثه و كيف قدر على سل سخيمته وإضحاك سنه.

مسكين هذا الوزير ! عليه مع إتقان العمل والتجويد فيه وشحن الثغور ، و إدارة الدواوين ، إن يعرف مزاج خليفته و يحفظ هذا المزاج بكل ثمن صافيا معتدلا .

وإذا ما اضطرب المزاج و خان الوزير سحره وتقوت عليه السعاية جاءت الواقعة التي لا يكون ضحيتها الوزير فحسب ، و إنما الوزير و معه أهلوه وكثير من أصحابه . . شاركوه السراء ، فيجب أن يشاطروه الضراء هذا هو منطق هذا العصر وكل عصر شبيهه .

ألم يكن الوزير قادرا على أخذ العبرة في حديث السلطة والثروة و الأعداء والأصدقاء ومكائد البلاط ؟ ؟ فيفتدي بهذا مصيره المحسوب . . . لا لأن الوزارة هي سلطة و ثروة بذاتها . ومتى جاءت السلطة والثروة فقد جاء الأعداء الألداء والأصدقاء الأوفياء ، وجاء تبعا لهذا الحسد والسعاية .

قد يسرف الخيال في تصور الحيطة الممكن اتخاذها في هذا المجال كأن يأخذ الوزير عهدا مكتوبا على الخليفة أن لا ينكبه . .
هراء إذا انقلبت النفس الإنسانية _ تحت تأثير مختلف العوامل و الظروف _ من الرضا التام إلى الغيظ الذي لا يسمع ولا يبصر ! فهيهات أن يمسك بها عهد مرقوم وكتاب مسطور . لقد أخذ يحي مثل هذا العهد على الرشيد ، و لكن يحي كان عاقلا فلم يذكر هذا الكتاب و هو يذكر للرشيد حججه في باب الشفاعات .

و مهما بلغت ثروات الوزراء و أقدارهم و حديث أعدائهم و أصدقائهم فلم يبلغوا في ذلك ما بلغه البرامكة .

البرامكة

الروايات التي تتناول نسب هذه العائلة غامضة ، وفيها مــع تــضاربها و غموضها ما يشبه الأساطير . و حسبك أن تعلم أن منها ما تزعم أن خالد بن برمك من أصل عربي ، كانت أمه بين سبايا عبد الله أخي قتيبة بــن مــسلم ، أمضى معها ليلة حملت بعدها بخالد . . ذكر هذا الطبري في حادث عام ست و ثمانين ، و علقت عليه دائرة المعارف الإسلامية أنه من وضع أبناء عبد الله بن قتيبة ، لتقريب العنصر العربي من هذه العائلة الفارسية ، في زمن كانــت فيه هذه العائلة صاحبة السيادة في مملكة الإسلام . .

وإذا ما أراد الباحث أن يؤمن العثار في حديث هذه العائلة في زمن فــارس قال : أنها عائلة معروفة بوجاهتها الدينية . أما مقدار هذه الوجاهة أن الملوك كانت تفد إليها لزيارة " النوبهار " _ المعبد الديني الذي تقوم على خدمتــه _ فتقبل يدي برمك ،فلا سبيل إلى تحقيقه ، لأن هذه العائلة اشتهرت في الإسلام ، وتأثر التاريخ بخلالهم الحميدة ومأساتهن الرائعة ، ولم يستطع أن يرسم لنــا لا إلى برمك وإنما إلى خالد ابنه الذي عرفت منه الدولة العباسية مــا يــشبه الوزير تاريخ حياة واضح .

على أن الشيء المحقق الواضح _ وهو وجاهة هذه العائلـــــــــــــــــــة الدينية _ يغني الباحث في رسم خطوط عريــضة وليست

بدقيقة ، تتناول الخصائص العامة ولا تقدر أن تمس الجزئيات .

فالعائلة التي تقوم على أمر ديني له قداسته في نفس الجمهور ، هي أدنى للغنى وأقدر على أسبابه من غيرها . فإذا قيل إن لهذه العائلة أراضي واسعة هي أقطاع لها ، لم يكن هذا القول بالمستغرب .

ورجال الدين في القديم : هم بحكم وضعهم الاجتماعي مرشدون ومعلمون للناس . فهم أوسع من غيرهم ثقافة إذ هم أقدر على تحصيل هذه الثقافة ، بما يهيئ لهم الفراغ والغنى من وقت وأسباب ، و لأن في هذه الثقافة ما يدعم سلطانهم الروحي . . هذا ما يقال على وجه التعميم ، ويقال على وجه التخصيص أن العلم في أواخر الدولة الساسانية قد لاذ بالمعبد ووجد حماته بين ظهراني رجاله . ولهذا فلا تظن أن حديث الفلك و التنجيم و شيئا من مباديء التطبيب حديث مختلق ، إن أضيف إلى رجال هذه العائلة ، فقد ذكروا أن لبرمك علما بالنجوم والطب ، وأنه عالج مسلمة من مرض ألم به ، و قد بقيت هذه العلوم _ لا سيما النجوم _ متصلة بهم بعد أن اتصل أمرهم بدولة الإسلام . . كان يقال أن يحي أعلم الناس بحركات الكواكب ومطالع الأفلاك .

ولرجال الدين سمت ومظهر يقصدون منه _ قبل كل شيء _ التأثير في نفوس الناس . . ولا تخطيء هذه السمت في أحد من رجال هذه العائلة البارزين . يقال أن أهل الموصل لم يبلغ توقيرهم لعامل ما بلغ من توقيرهم لخالد ، من غير أن يظهر قسوة أو جبروت . . . ونستشف من خلال أسطر التاريخ أن لابن يحي مثل هذا السمت والتوقير .

ولعل من ارث الوجاهة الدينية حسن السياسة والبصر بأحوال الملوك ومعرفة طبائع العامة واجتذاب الأتباع ، إذ كان أصحاب هذه الوجاهة بمنزلة وسطى بين المنزلتين . وفريق خاص بين الفئتين يأخذون من كل فئة قوة يستعينون بها على خضد شوكة الفئة الأخرى ، وهم بعد سفراء العامة للخاصة، ورسل الخاصة للعامة أن أرادوها _ أي العامة على أمر .

أما حديث الكرم الذي اشتهرت به هذه العائلة ، حتى كوفئوا بان نحت العرب من اسمهم لفظة من معانيها الجود ، فقالوا " تبرمك الرجل " إذا جاد وكرم ، فالظاهر أن يسارهم في بلاد فارس ، ووجاهتهم الدينية فرضا عليهم ذلك ، ثم أعانت حالة العصر والمحاكاة الحسنة الطبع السري والنفس المتهيأة فبلغوا فيه الغاية . اشتهروا كلهم بذلك ولكن لم يبلغ أحد فيه ما بلغه الفضل بن يحي .

ما لقينا من جود فضل بن يحي ترك الناس كلهم شعراء

هذا ما يستطيع أن يرسمه قارئ التاريخ لحديث العائلة ومقدار خصائص الوراثة فيها ويضيف إن هذه العائلة و هي فارسية ورثت كثيرا عن العرق الفارسي والحضارة الفارسية ، فهي أقدر بحكم هذه الوراثة على إدارة شؤون المملكة وتصريف الأمور بحكمة ولباقة من غيرها ممن ليس له مثل ارثها ، لأنها اقدر على التمثيل والاحتذاء و أخذ ما يصلح و ما لا يصلح من أحاديث تاريخها الطويل . فهذا يحي يكاد يضع قواعد فيما يجوز و فيما لا يجوز في مخاطبة الملوك ، فيخرج الخلق العربي

البسيط في مخاطبته ملوكه وأمرائه إلى أرستقراطية ، فهو يقول بأن مـــساءلة الملوك عن حالها من تحية النوكي ، فإذا أردت أن تقول كيف أصبح الأميـــر فقل : صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وان كان عليلا و أردت أن تـــسأله عن حاله ، فقل من الله على الأمير بالشفاء والرحمة . وهـــو يعلـــل هـــذا أن الإجابة قد تثقل على الأمير ، فإذا أجابك فقد كره ، و إذا لم يجبك فقد أنزلـــك عن منزلتك .

ليس هو يحي و لا هم البرامكة وحدهم هم الذين اخرجـــوا حالـــة الملـــك الإسلامي عن وضعه السهل البسيط فـــي عقـــل العربـــي ، ولكـــنهم الفـــرس _ بأجمعهم _ الذين خدموا في قصور الخلفاء . .
يضاف إلى ذلك زيادة الثراء ، زيادة فاحشة ، انحرف بالبلاط الإسلامي مـــن ايوان أمير عربي ، سهل في حياته ، و طريقة معاشه إلى بلاط فارسي أوفـــى من التراف الشرقي البغيض على غاياته . على أن بعضا من المؤرخين ذكروا أن هذه القاعدة في مخاطبة الملوك هي للفضل بن الربيع ، ولكنها بيحي أشـــبه و أمثل . و قد ذكرت كتب الأدب و التاريخ من أشباهها الكثير .

و لقد كان الخلائف يستشيرون رجال هذه العائلة ويأخـــذون بـــرأيهم و إن خالفوهم بغض الاحايين ، فكثير ما تتكشف الأمور فإذا الرأي ما رأوا وإذا هم على سداد . و الرأي الناضج وصحة الاستبدال بعد أعمال الفكرة و مقايـــسة الأمور على أشباهها ، هو في الغالب وليد التجربة والمعاناة و هوء الطبـــع ، وهي أشياء اقرب أن تكون وليدة الإرث العائلي الذي يستمد خصائصه من

تقاليد العائلة ومن ارث الحضارة ، وهذا هو الشأن مع هذه العائلـــة . فخالـــد وولده يحي ليسا بالعباقرة ، ولكنك في مواقف التاريخ تلمح سبقهما في جـــودة الرأي وصحة الإستدلال .

رأى ابو جعفر المنصور ، و هو يبني بغداد ، نقض ايوان كسرى ليستعين بأحجاره ، فأشار خالد عليه بتركه ، ليبقى شاهد عدل على قوة الإسلام التـــي استطاعت أن تغلب أمة آثارها هذا البناء ، فاتهمه المنصور بالعصبية لفارس . و لما لم يستطع نقضه و أربت تكاليف نقض الحجارة على أثمانها ، أشار عليه ثانية أن يتم نقضه حتى قواعده ، و حجته في ذلك أنه يجب أن لا تعجز أمـــة الإسلام عن نقض ما شادته أمة خراسان . و جـــودة الـــرأي واضـــحة فـــي المرتين، ولا يطعن الحرص على إبقاء الآثار مغمز من عصبية .

توفي المهدي بعيدا عن بغداد ومعه من أولاده هـــرون ، فأشـــار المـــوالي والقواد عليه أن يخفي أمر موته على الجند مخافة أن يشغبوا عليه ، و أشـــار يحي أن مثل هذا الأمر لا يخفى ، ومتى ظهر ، تعلق بمحمله الجند يطـــالبون بأعطيات لثلاث سنين ، والرأي أن تظهره و توزع على الجند قليلا من مـــال فإذا ما استلموه كان همهم الأوبة و ليس لهم وقفة دون بغداد ، و هكـــذا كـــان ووجه الصواب في هذا الرأي لا يخفى على متأمل .

ورأى خالد الظباء تنفر من الصحراء ، وقد كان مع قحطبـــة _ فـــي يـــوم خبارة _ فأشار عليه أن يأمر عسكره أن يسرج و يلجم و يسرع فـــي هـــذا ، فاستشرف قحطبة ليرى عدوا فلم يرى شيئا ،

فنظر إلى خالد كالمستغرب ، فأشار إلى حيوان الصحراء النـافر و أن ذلـك يجب أن يكون من جيش أخذ عليه أقطار صحرائه ، فأخذ برأيه فدهمته الخيل بعد قليل . و الروايات التاريخية عرضة للتصديق والتكذيب و لكن التكـذيب هنا لا ينقض القاعدة ، و هي أن رجال هذه العائلة عرفوا بجودة الـرأي وأن الخلفاء و أولي الأمر كانوا يستشيرونهم و يعملون برأيهم كثيرا وأن هذا الرأي كان يدل على نضوج وسداد و تجربة ، هما مـن اثـر العائلـة والحـضارة الفارسية ، لأنه كثيرا ما يلاحظ على هذه الآراء الرجوع إلى المقايـسة فيمـا يتصل بشؤون الملك والسياسة .

و إذا ما تركنا حديث العائلات وورث الوارثات ، وسـرنا بالبحـث إلـى الخصائص الذاتية والمواهب المقصودة على الإفراد ، قلنا في جد هذه العائلـة خالد بن برمك انه يلحظ فيه موهبة في فن الحرب ، فقد ذكروا له أثرا بعيـدا في غزوة الصائفة التي عقدها المهدي لولده هرون و أجمعوا على حسن بلائه ، و أثره الجميل في القتال على حصن " سمالو " وأنه لم يكن لأحد من رفاقه ما كان له في تلك الواقعة . ومن رفاقه ابنه يحي و الربيع بن يونس ، وكذلك كان الشأن معه مع قحطبة _ في يوم خبارة _ الذي ألمعنا إليـه . و تنـتقض الموصل و يغلظ فيها أمر الاكراد . فيقول المسيب بن زهير للخليفة المنصور : ما رميتهم بمثل خالد فيرميهم به . و كان المسيب صـديقا لخالـد ، ولكنـه المنصور ومن لا يستطيع أحد التغرير به وأن يجوز في تقـدير الرجـال _ عنده _ حدودهم المعروفة ، والادل في ذلك إن جاءته تولية المنصور له على الموصل ليخمد ثورة الاكراد هذه وقد سخط عليها و اجتـواه . . فكـان رأي المسيب مباركا وعادت الأمور في الموصل سـيرتها الأولـى مـن الطاعـة والخضوع .

وقد اختلط حسن الإدارة مع المقدرة في الحرب في حديث خالد هـذا ففـي خراسان يقسط في الناس ويصلح من أمر الخراج فيـضعه عـن الـشجر . . وتكثر في نعوته أنه كان سريا جليل المنزلة له هيبة ووقار . ويقول المسعودي في مروج الذهب أن أحدا من ولده لم يبلغ منزلته ، لا في جودة رأيه و لا في بأسه ولا في فصاحته و شجاعته . و إذا ما حذفنا المبالغة المعتادة في أمثـال هذه الأحكام التي يصدرها المؤرخون على رجالهم في معرض المدح والـذم ، بقي الحكم المقبول وهو أنه رجل له منزلة تفتقده الدولة في جلـل أعمالهـا ، وأن له مع هذا من السرور والفطنة والسخاء ما يعدل هذه المنزلة الرفيعـة التي بلغها في دولة بني العباس . .

أما ولده يحي فالصفة الغالبة عليه ، والتي تطالعك أول مـا تطالعـك مـن صفاته ، هذا العقل الراجح و هذا الرأي يجيء به لا عفو الساعة وإنما بعـد تفكير موزون له مقدماته وله نتائجه ، فلا تلمح عليه أثرا مـن عجلـة فكـأن المعضلة قضية مطروحة للحل لا أثر لها على الأعـصاب وهـدوء البـال و صفاء الذهن . ففي تاريخ حياته الحافل ندر أن ترى عملا أثاره فأفقد شيئا من هدوئه واتزانه .

حكى الفضل بن الربيع ، و هو ألد أعداء هذه العائلة ، قال : صرت إلـى يحي و سألته حاجة فتعلل علي في قضائها فنهضت أقوم وأقول :

عسى و عسى يثني الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور
فتقضي لبانات وتشفي حسائـك ... وتحدث من بعد الأمور أمور

فقال : نعم ، يحدث الله من بعد الأمور أمور ، وأقسمت عليك يا أبا العباس إلا جلست وعلي قضاء حاجتك حتى اكلم الخليفة فيها .

و قد كان هذا الهدوء والاتزان يظهر عليه فتى لم تعركه التجربة ، ولم تأخذ من أعصابه السن . فقد رووا أن المنصور كان يقول وهو ينظر إليه :

ولد الناس أبناء وولد خالد أبا . والمؤرخون إذ يذكرون العوامل التـــي أدت إلى نكبتهم ، يذكرون منها الادلال على الخليفة ، ولكنهم يلصقون هذا بـــأولاده ويستثنونه منهم ، لوفور عقله ووافر حكمته . و قد كان لهذا العقل أثره البـــين في خلوصه من النكبة التي وضعه فيها الهادي ، بسبب الرشيد وإخلاصه لـــه وعدم تنازله _ بوحي منه _ عن الخلافة للهادي أخيه .

وقد كان يظهر هذا العقل لا في حديث المـــــــــــــــــلك وما يتصل به ، وإنما في حديث هو الصق به وأدل عليه و هو حديث العلم ، فقـــد كان ليحـــي اياد عليه ، فهو الذي استقدم كثيرا من أطباء الهند إلى الحاضرة بغداد ، مثـــل منكة وقليرقل وسندباد . وذكر ابن النديم بكتابة الفهرست أنه أمـــر بتفـــسير كتاب سسرد لمنكة الهندي في البيمارستان . ولم يقتصر فضله علـــى الطـــب وتشجيع حركته ، وإنما امتدت إلى مختلف فروع النهـــضة والثقافة ، فهو أول من عني بتفسير كتاب المجسطي وكان يأوي إلى حـــماة كثـــــير مـــن رجال الفكر ، مثل العتـــابي الذي ذكرت له كتـــــب في المنطق ، و محمد بن

الليث الخطيب الذي كان يرمى بالزندقة . ومما يجيء مع السياق انه كان لـــه مجلس يجتمع فيه أهل الكلام للبحث والمناظرة ، وكان صاحب النظر في هذه المجالس هشام بـــن الملك الحاذق في هذه الـــصناعة و الحاضـــر الجـــواب والبادرة ، هذا إلى علم مشهود في النجوم ، حتى كـــان يقال انه اعلم النـــاس فيها .

وإذا ما عاد إلى قصره ، فشد ما يأوي ليطرح البهرج الزائف من ســـلطان يغري على الخيلاء ، إلى بيت صغير كتب عليه :

كفى بملتمس التواضع رفعة * وكفى بملتمس العلو سفالا .

وإذا كانت سير رجال التاريخ تتجسد لقارئها شخوصا تعايشه ، فانك لتجـــد نفسك _ مع يحي _ مرغما على الاطمئنان إلى عقله وان هذا العقل لن يغرر بك على حال .

ترجم له الفضل بن سهل كتابا فأعجبه ، ورأى في الفضل مخائـــل نجابـــة فرأى قبل إن يتعهدها أن ينصح له بالإسلام ليسلك به الحجـــة الواضـــحة ، فالدولة مسلمة ورجالها مسلمون . . . فقبل النصيحة و قال : ها إنا اسلم على يدك ، قال : لا ، ولكن اذهب إلى المأمون وكان بحجر ولده جعفر واسلم على يده و هذه خطوة ثانية أراد أن يعود فضل إسلامه إلى ولي عهد المـــسلمين ، فذلك أجدى أن يعود عليه _ أي الفضل _ بالخبر ، وهكذا كان . وما عتم بعد حين من الزمن أن أصبح وزيرا له ، وكان ينصح أولاده فيقول لهم : اكتبـــوا أحسن ما تسمعون واحفظوا أحسن ما تكتبون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون .

وقد كان لفرط حبه للعقل ، يحب أن يرى أثره في دقيق الأعمال وجليلهـا فهو يقول : ثلاثة أشياء تدل على عقل صاحبها الهدية والكتاب والرسول .

ويضاف إلى حديث هذا العقل سماحة في اليد _ شنشنة عن آل برمـك _ تتعهد مواضع الخلة ومكان الحاجة ، حتى كان يقال عنه ما كان يـرى لـه جليس إلا وامرأته شراها وداره بناها . ومن العجب أن ترى في هذا الكـلام آثر العقل المفلسف ، فقد كان يقول أو يتمثل بحكمة فارسية : إذا أقبلت الـدنيا فأنفق فإنها لا تفنى وإذا أدبرت فإنها لا تبقى .

ثم تجيء صفة ثالثة بينة ، وهي دين ثابت _ حج كثير ، وأراد غير مرة أن يمضي عمره مجاورا قبر الرسول _ ص _ .
وطلب حين نكب أن يمضي ما تبقى له من أيام في المدينة ينعم بجوار الثـرى المقدس .

ويحوط هذه الخلال كلها بيان رائع ومنطق عذب ، حتى يقول الجـاحظ أن الناس عيال في منطقهم وبيانهم عليه وعلى ابنه جعفر . وقد ارتفع هذا البيـان إلى سماء القريض فقد رويت له أشعار منها هذه المساجلة .

كان له صاحب شاعر يحضر مجلسه ، فمرض هذا الصاحب فلـم يفتقـده الوزير ، فكتب إليه معاتبا :

أجميلا تراه أصلحك الله لكي أراه أيضا جميـلا
أنني قد أقمت عنك قليلا لا ترى منفذا إلي رسولا

فرد عليه يحي:

رفع الله عنك نائبة الدهـــــــــ ر وحاشاك أن تكون عليــــــلا
أشهد الله ما علمت ومـــــــــاذا ك من الغدر جائزا مقبـــــولا
ولعلي لو قد علمت لعـــــاود تك شهرا وكان ذاك قليـــــلا
فاجعلن لي إلى التعلق بالعـــذر سبيلا إن لم اجد إليه سبيـــلا
فقديما ما جادذو الفضل بألف ضل وما سامح الخليل خليلا

وهي أبيات مقبولة من أمير لا يتعاطى الشعر ولا هو من صناعته . وقــد ذكروا لابنه ابياتا ليست دون هذه ، قالها وهو في السجن . على أن القدامى لا يذكرونه كثيرا في الفصاحة والبيان ، وإنما هم يكادون أن يقصروا أمرهمـــا _ الفصاحة والبيان _ على أخيه جعفر .

تمت صورة الوالد وبقيت صورة الأولاد ، ونتعرض لاثنين منهما : الفضل وجعفر . أما البقية فأسماؤها لا تكاد تبين على صفحة تاريخ هذه الفترة ، وان اشتهر من بينهم موسى بالشجاعة ، حتى كان يذكرها له المأمون .

وصورة الفضل واضحة لا تحتاج في رسمها إلى كبير عناء ، فهــو فتـــى كريم بل هو أكرم هذه العائلة ، جار كرمه على سمعة أخيه جعفر حتى كـــان يتهم بأنه لا عطاء له . وكان فيه كبرياء شديدة يقلد فيها عمارة بن حمزة كمـــا يذكر هو . وكبرياؤه عمارة ، لا تشعر وأنت تقرأهما وتقرأ آثارهما ، بـــشيء من الثقل و الفظاظة ، لأنها كبرياء تتعالى بالفضائل الإنسانية .

عمارة شيخ المتكبرين في التاريخ العربي . يعد أحدا أن يأتيه فـــي الغــد ، فتزيد دجلة في اليوم الثاني زيادة مخيفة ولكن ينزل من الطرف الثاني قالـــب يمخر عرض الماء الطامي . . يعلو الموج بهذا القارب ويحطه ليشيله حتـــى يهلل الناس ويخشون عليه الغرق ، ولما يصل إلى الطرف الثاني مـــن دجلـــة ينزل منه عمارة و يقول له من واعده ما كنت أظنك آتيا . . فلا يزيد عمارة عن القول : ما كنت لأعد و أخلف ويمشي ويده بيد المهدي ، ويسأل الخليفـــة سائل : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ من هذا الذي تحتفي به ؟ فيقول : هو أخي عمارة بن حمزة . . ثم يلتفت الخليفة ويقول: كنت أخشى أن يزل بي اللـــسان فأقول : مولاي عمارة . فيقول : لو قلتها لنفضت يدي من يدك . فيقول : كنت أعرف ذلك . و كان بين هذا السيد و البرامكة ود متين ، فحـــرص الفـــضل على أن يقلده وانطبعت المحاكاة في نفسه صغيرا فهو في خراسان يمر بعمـــر بن جميل وهو ينحر للناس ويطعمهم فلا يقف عليه ، حتى ليغضب عمر ولكنه إذ يصل إلى مضربه . يقول : يجب أن نعين ابن جميل على مروءته ، ويبعث إليه بجملة صالحة من المال . .

مثل هذه الكبرياء لا تؤذي . لأنه ليس فيها افتئات على أنانية الإنسان وإنمـــا تتبهه إلى مقدار ما تستطيع النفس الإنسانية أن تسمو ، فإذا ما ظهـــر المتكبـــر وكأنه يريد أن يكون أنسانا ونصف إنسان ، كان معنى هذا في لغة الذات أنه يريد أن يجور عليك في نصف ذاتك لتكملا ذاتين و تتما أنانيتين . . ولكن في كبرياء عمارة والفضل ، لا افتئات وإنما ه فضائل تنمو ، فهو لا يتعالى عليك كما يتعالى المتكبرون وإنما يتعالى بفضائله ويفسح

لك المجال لتتعالى بفضائلك ولكن على من ؟؟ على الضعف الإنساني . . فهي لا تنقص منك ، وإنما تزيد فيك وتنبهك إلى مقدار ما تستطيع أن تكون خلقا وفضيلة وأريحية . .

والمتكبرون من غير هذه الفئة يميلون إلى التكتم وعدم الوضوح ، لأنهم يخشون على كبريائهم أن تنهار ، أما هؤلاء فلا . لان كبرياءهم ليست بناء منفصلا عن ذواتهم ، وإنما هي فضائل نمت أكثر من المألوف ، فكرم الفضل وصل إلى حد السرف ، ومروءته كان يقول فيها : لو علمت أن شرب الماء ينقصها لما شربته فالخلة التي يلقاك بها الفضل بعد الكرم والكبرياء هي الوضوح والصراحة .

لقي ابراهيم الموصلي منصرفا من عند الفضل بن الربيع _ عدو العائلة _ فقال له : ايه من عند الفضل بن الربيع إلى عند الفضل بن يحي ، والله إن هذا لا يجوز فقال له الموصلي ، أي من عند الفضل بن الربيع إلى عند الفضل بن يحي والله لا أصحب أحدا منكم إذا كنت متهما عند الآخر . فقال له : لا عليك لست متهما عندي .

وسأله أبان اللاحقي أن يوصله إلى الرشيد ، فقال له : انك تعرف مذهبه فإذا كنت قادرا كمرو أن ابن أبي حفصة على هجاء الطالبين أوصلتك إليه .

فقال : والله لا أستحل هذا . فقال له وهو يطلب منه التقية ولكن بأوضح بيان وأصرح عبارة : كلنا يفعل ما لا يستحل وبك بنا وبسائر الناس أسوة . . .

ولما كان واليا على خراسان انصرف أول مرة إلى اللهو والصيد ، فجـــاء الخبر إلى الرشيد ويحي عنده ، فكتب إليه يطالبه بالتقية ويحثه عليها :

انصب نهارا في طلاب العلا * واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بـــــــدا مقبلا * وغاب فيه عنك وجه الرقيب
فبادر الليل بمـــا تشتهـــــي * فإنما الليل نهار الأريب
ولذة الأحمق مكشسوفة * يسعى بها كل عدو مريــــــب

و بعد ، فاذا وثقت بعقل يحي واطمأننت إلى صراحة ابنه الفضل فانك غيـــر قادر على أن تولي مثل هذه الثقة ولا هذا الاطمئنان الــوزير الـــصغــــــير _ جعفر _ وإنما أنت مضطر أن تمشي معه على حذر لأنه رجــل فــصاحة وبيان منقطع النظير ، ولىنه رجل بديهة وأعصاب ، يقول _ بعض المـــرات _ ولكن غير ما يعني ، سهر ابن جامع ليلة مع الرشيد فجاءه فـــي الـــصباح ابراهيم الموصلي يسأله عن ليلته ، ولم يخف عليه الألم ينضح به سؤاله عـــن ليلة انفرد بها ابن جامع بالرشيد ، فقال : كنا بأحسن حال ولكن كان يـــنغص علينا ابن جامع كان يخرج من الإيقاع ولم يخف على الموصلي إن جعفر يقول غير الحقيقة فقال : ألِي تقول هذا وابن جامع من ثلاثين سنة لا يخرج ، فـــي كلامه عن إيقاع ، ولكن قلت ما قلت لتسرني . وقال الرشيد : أعقد للفـــضل بن الربيع على ولاية . فالتفت إلى الفضل وقال له اختر ، قال الجزيرة ، قـــال سأفعل ، ولم يعقد له عليها .

و ترد هذه الجملة " و قال جعفر كيت وكيت بسلاستـــــــــــــــــــــه

المعهودة " ولا شك أن هذه السلاسة هي التي مكنت له في هذه المنزلـــة عنـــد الرشيد حتى كان أوحد زمانه حظوة عنده ، وهي التي سلكت فيه إلى طريـــق المنادمة .

وحينما ارتحل إلى الشام يخمد الفتنة التي هاجت فيها بين المضرية واليمنية لم يطل به المكث ، و لكنه عاد يقبل يد الرشيد ورجله ويمثل بين يديه ليصف في كلام طويل بالغ شوقه ولو أعجه في الحنين إلى اجتلاء طلعته " فو الله إن كنت اذكر غيبتي عن سيدي ومخرجي والمقادير التي ازعجتني فـــاعلم أنهـــا كانت بمعاص لحقتني وخطايا لحقت بي ولو طال مقامي عنك يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك _ لخفت أن يذخب عقلي إشفاقا على قربـــك وأســـفا علـــى فراقك وأن يعجل بي عن أذنك الاشتياق إلى رؤيتك " . ثم يذكر كيف هـــدأت الفتنة ويستأنف القول " و والله _ يا أمير المؤمنين _ مـــا تقـــدمت إلـــيهم إلا بوصيتك وما عاملتهم إلا بأمرك ولا سرت فيهم إلا على حد مـــا مثلتـــه لـــي ورسمته ووقفتني عليه والله ما انقادوا إلا لدعوتك و تخوفهم من سطوتك " .
ثم يقول "فكيف بشكري وقد أصبحت واحد دهري فيما صنعته في وبـــي ، أم كيف بشكري وإنما أ قوم على شكرك بإكرامك اياي وكيف بشكري ولو جعـــل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدي وكيف بشكري و أنت لا ترضى فيما أرضاه لي أم كيف بشكري وأنت تنسيني ما تقدم بإحسانك إلي بما تجدده لي أم كيف بشكري و أنت تقدمني بطولك على جميـــع أكفـــائي أم كيف بشكري وأنت ولي " . . . وليست هذه كل الخطبة ، ولكني تعمدت نقـــل هذه الفقرات لادلل على هذه السلاسة .

فأول ما يطالع القارئ ويستوقف نظره هذا الشوق وهذا الشكر ، ولكن الأهم منهما في نظر السياسة والسلاسة هذا الفضل بإخماد الفتنة ، الذي ظل يلح بوصف أمير المؤمنين فيه حتى جعله كله عائدا إليه ، ولم يجعل نفسه أكثر من شخص عادي جدا ، لو وجه أيا مكان لا غنى غناءه ولا بلى مثل بلائه ، لأنه يسير في طريق مرسوم معينة ، فيه أماكن الحل وأوقات الترحال وما يأتي وما يدع وما هو إلا أن يجيء المر مهيئا ، وكل ذلك من صنع أمير المؤمنين " وما هو إلا أن أليقت دعوتك حتى انقادوا إليها فهم والله ما انقادوا إلا لدعوتك وتخوف من سطوتك " . . و اعتاد القادة الظافرون أن يقولوا لملوكهم مثل هذا ، ولكن جعفر واتته قدرة البيان وسلاسة الطبع فأربى عليهم .

وإذا كان حديث الشوق خاصا بجعفر ، لا يستطيع أن يقوله إلا من بلغ منزلته وشارك الخليفة في منادمته . فحديث الشكر مستطاع لكل من واتاه فضل من أمير المؤمنين وتوالت عليه نعماؤه ، وكثيرهم . . ولكن من قال قوله ؟؟ هيهات لقد استنفد المعاني التي تخطر على البال في ما قاله فقصارى الشاكرين أن يعيدوا المقال ، ولكن في ديباجة دون هذه الديباجة المشرقة .

وقد كانت هذه السلاسة عاملا قويا ، لا في تقريب أمره من الرشيد وتمكين منزلته عنده فحسب ، وإنما في تقريب أمره من الناس وتمكين منزلته عندهم ، فقد كانوا إلى لقائه أميل لطلاقته وبشره وسلاسة منطقه من لقاء أخيه ، المنعم المتفضل الذي يجاري الريح في كرمه . ولو شاء المؤرخون لقالوا ومن لقاء

أبيه في عقله وحكمته ، والذي لا ينطق إلا بمقدار وفي روية واحتـراز ومـن فضائله المعدودة إلى جانب البيان واللباقة وحسن المداخلة ، الفطانة ، فقد كان فطنا بل آية في ذلك ، حتى قيل فيه " بديهته مثل تفكيره " ، ولعل مـن هـذه البديهة المطاوعة ما يلمحه القارئ في سيرته _ في بعض الاحيان _ من أثـر للتسرع ، فقد تعطي البديهة أصحابها جوابا مصيبا هو الجواب المصيب بعـد الروية والتفكير ، بيد أن التفكير واعمال الروية يفرضان السكوت ويوجبـان عدم الجهر بهذا الجواب المصيب ، إذا كان فيه ما يؤلم الغير ويجـور علـى أنانيتهم إذ ينزلهم منزلة المتخلف ومن تقصر أفهامهم عن مجاراته .

غنى ابراهيم الموصلي في حضرة الرشيد لحنا في شعر طريح وهو :

قد طلب الناس ما بلغت فما * نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا

فقال الرشيد أحسنت فابتدره جعفر قائلا : قد أحسن والله يا سـيدي ولكـن اللحن مأخوذ من لحن الدلال ، والشعر من قول زهير :

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم * فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألو

فاغتتم الموصلي لأنه لم يفطن إلى ذلك قبلا ولو إلى اللحـن . . وسـكتت الرواية . . و لو زادت لقالت إن الرشيد لم يكن دونه غما ، فقد كان قبل ذلـك قد استعاد اللحن مرارا استحسانا .

ودخل الفراء على الرشيد فتكلم ، فقال جعفر : ألحن الفراء _ يا سيدي _ في كلامه . ولم يكن الرشيد قد فطن إلى ذلك فسأل الفراء كالمستثبت فأقر .

وقد يخرجه هذا الطبع إلى تسرع ما كان يجب أن يكون ، ولكن أعـصابه تهتاج فلا يستطيع أن يمسك بها . تلاحى والفضل بن الربيع في مجلس الرشيد فقال له ثائرا يا لقيط وذهل الفضل فلم يدر بما يجيب أيصمت ؟ وليته صـمت غير أنه التفت إلى الرشيد وقال له : أشهد ، فلم يرحمه والتفت بـدوره إلى الرشيد وقال :

ترى عند من سيقيمك هذا الجاهل شاهدا وأنت أحكم الحاكمين .

والتهيج وثورة الأعصاب أشياء قريبة من الذكاء الحاد و الفطنة . . فليس غريبا بعد هذا أن يجيء من هذا الذكاء الحاد والفطنة المتوقـدة والأعـصاب المهتاجة بدوات خطيرة لأن فيها تعرضا للخليفة . . ومن تمامها _ أي الذكاء والفطنة والأعصاب _ أن لا تجيء هذه البدوات في معرض الملاحـاة بـين جعفر وأعداء ، وإنما بين جعفر وأصدقاء ، و في معرض النصح ، كما سيرى القارئ عند الحديث عن أسباب مقتله .

وقد غالى من كتب عن جعفر في وصف فصاحته وبيانه وجودة تواقيعه .

والذي بين أيدينا منها لا يجيز لنا الحكم إذ لم يصل إلينـــــــــــــــــــا

إلا نتف قليلة جدا ، ومن وصف الأقدمين لها يظهر أنها فصاحة لا تعتمد على شقشقة اللسان فحسب ، وإنما يدعمها اطلاع على ما يجب الإطلاع عليه من أصول الفقه والأحكام الشرعية .

يذكرون أنه وقع _ ليلة _ بحضرة الرشيد زيادة على ألف عريضة كثيرة مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة و الفقر البديعة لم يخرج في واحدة منها عن أصول الفقه وما يوجبه الشرع ، هذا إلى بلاغة في الإيجاز وسمو في التعبير والعبارة . ويقول أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة بعد أن يذكر ما يلزم للكاتب " فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملا ولا لاسمه مستحقا إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال ويجمع إليها أصولا مغلوطة بفروعها وآيات من القرآن والأحاديث وأخبارا والتجارب المعهودة والمجالس المشهودة مع خط كتبه مسبوك ولفظ كوشي محبوك ولهذا عز الكامل حتى قال أصبحنا ما نظن أنه اجتمع هذا كله إلا لجعفر بن يحي فإن كتابته سوادية وبلاغته سحبانية ، وسياسته يونانية ، وآدابه عربية ، وشمائله عراقية " . . و أبو حيان متأثر بهذا الرأي بالجاحظ الذي يجله ويحاول أن يقلده في أسلوبه . فهو _ أي الجاحظ _ يرى في جعفر هذا الرأي ، ويقول " ليس أبلغ منه ومن المأمون أحد " ويقول في موضع آخر ويروي عن سهل بن هارون " قال والله إن سجعوا الخطب وحبروا القريض لعيال على يحي وجعفر ولو كان كلام يتصور دررا أو يحيله المنطق السري جوهرا لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما ، وأينما سرت في كتب الأدب طالعك الرواة بهذه الصفة لجعفر . . .

وليس أدل على فضله وقدرته على التصرف في فنون

القول مع هذه الرواية . قال ابن حمدون عن أبيه " كنت أحب أن أجمع بـين ابراهيم بن المهدي و أحمد ابن يوسف الكاتب لغلبته على الناس فدخلت يوما على ابراهيم يحدثنا فيضيف شيئا إلى شيء مرة يضحكنا ومرة ينشدنا ومـرة يذكرنا وأحمد ساكت فلما طال المجلس أردت أن أخاطب أحمد فسبقني أحد الحاضرين وقال له :

مالك لا تنبح يا كلب الروم وقد كنت نباحا فما بالك اليوم

فتبسم ابراهيم وقال لو رأيتني في يد جعفر ابن يحي لرحمتني كما رحمت أحمد مني .

والمظنون أن له بعد مشاركة في علم النجوم فقد ذكـر شـاعر رثـاه أن مشاورته لها لم تغنه ، وذكروا أنه كان يستشيرها في حله وترحالـه علـى أن ذلك لا يستغرب ، فهو علم نشأ في بغداد و في بيئات مخصوصة منها ، مـن لدن أخذ المترجمون بترجمة كتبه ، وقد بقي مرعى الجانب في دور الخلفـاء ووزرائهم الذين جاءوا من بعده .

وكم كنت أحب أن لو ترك لنا التـاريخ أو الأدب _ إذ أن ذلـك مـن وظائفه _ صورة لصفاته الجسمية ، فحن لا نعرف منهـا ما نستطيـع أن نخرج معه بصورة وافية له تامة الأجزاء واضحة المعالم ، وأوفـي ما يقال فيه أنه كان طويل الرقبة يحتال على مداراة طولها بتعـريض زيـق القميص ، وهو ذو فتوة وظرف ، حسن الثياب ، ولعله لا يخلو من وسـامة ، ثم لا شيء بعد هذا . . ولم يبل من الأعمال الكبيرة مـا يظهـر أثـره فيهـا ويكشف عن خصائص نفسـية ومواهب غير التي ذكرنا ، فحادث الفتنـة

في دمشق التي نهد إليها وقضى عليها لم يكن حربا تحتاج إلى مواهب في فن الحرب ، بل كانت فتنة محلية بين فريقين من امة واحدة لا يحتاج الأمر إلى أكثر من براعة ولطف مدخل وحسن سياسة ، ومكان جعفر في هذه الأشـــياء ملحوظ ومعروف ، ولعلها هي التي جعلت الرشيد يعدل عن قادته المعـــروفين ليكل الأمر إليه ، لأنها للسلم لا للحرب وللسان لا للحسام .

اتصلت هذه العائلة بالدولة العباسية في مفتتح دولتها ، فابن خلـــدون يـــذكر في تاريخه أن السفاح أقام برمك على ديوان الخراج ، وأرجح أن كلمة سقطت من جملة ابن خلدون ، ولعلها خالد بن برمك . فالطبري يذكر أنه أقام خالـــدا بن برمك على ديوان الخراج ، وهذا هو الصواب فبرمك ورد على المملكـــة الإسلامية في زمن الدولة الأموية عام ٨٦ هـــ ، ثم عاد إلى موطنه ولعله لـــم يعد منه وابن خلكان يشك حتى في إسلامه . والمرجح أنه لم يعش حتى ذلـــك الوقت عام ١٣٢ للهجرة .. ومن قبل أن يلي خالد عمله أبلى في نصرة الدعوة العباسية البلاء الحسن فقد قاتل تحت لواء قحطبة بن شبيب . ولمـــا اســـتقرت أمور الدولة ظهرت منزلة خالد في عهد المنصور ، فهو يستشيره فـــي بنـــاء بغداد _ بعد أن أقره عل ديوان الخراج _ ويقول إليه ممازحا ، ومـــنهم مـــن يروي هذه الحكاية عن السفاح ، ما رضيت يا خالد حتى خـــدمتي ؟! فيفـــزع خالد ويستغفر الله ، فيقول له ، إن ابنتك تنام مع ابنتي ريطة ولربما انـــسرح عنهما الغطاء فأقوم لأرده عليهما . فيدعو له خالد ويقول : سيد يتقرب إلى الله برعاية ابنة مولاه . وتكون له أليد في حادث تنازل موسى بن عيســـــــى عن حقه قي الخلافة ، فقد استشاره المنصور فأشار عليـــــــه أن يبعث به

إليه ومعه ثلاثون من كبار القوم فبعث به وبهم ، فلما جاءوه أخذ خالد بإقناعه فلم يقنع ولم تلن قناته ، فقام من عنده وقال للمنصور : لقــد تنــازل الرجــل ويشهد لي بذلك هؤلاء الثلاثون . فلم يستطيعوا تكذيبه ولم يجد موسى بعد هذا بــدا مــن التنــازل عــن حقــه فــي الخلافــة فتنــازل عنهــا _ بثمن معلوم _ فعرف المنصور لخالد يده في هذا الأمر الجلل وعــرف لــه المهدي مثل ذلك .

وتولى المنصور ولاية الرى وطبرستان ، ثم نكبه بدسائس البلاط و ألزمه مالا كثيرا دفع منه جانب وعفى عن بقيته ، إذ عاجلته فتنة الاكراد بالموصــل ونثر كنانته ورماهم بسهم منها _ هو خالد _ وفــي ولايــة المهــدي يــروي الجهشاري أنه نكبه بمثل هذه النكبة وألزمه مالا كثيرا بعد أن اســتعمله علــى فارس وعزله عنها ، ثم عفا عنه بشفاعة أمــه الخيزران ورده إلــى ســابق منزلته .

وكان يرافقه في هذه الولايات ابنه يحي يوليه على جزء منها فيحمد أثره . وأهم من كل هذا في تاريخ العائلة وتاريخ يحي ، أن المهدي عقد لابنه هارون على المغرب ، وجعل على ديوان رسائله يحي ، ثم جعله كاتبا ووزيرا لــــه _ على القسم الذي يحكمه _ عام ١٦١ هــ وبقي معه يقوم بأمره حتــى عــام ١٨٧ هــ عام النكبة .

ومما مكن ليحي عنــد المهدي ، يــد أبيــه عنده في أمر بيعــــته ، واحتفاؤه هو بـــــه يوم زاره وهو عامل على الري والمهدي ولـــــــي

عهد . واختاره ليقوم على شؤون ابنه هرون ، لوثوقه في عقله وحكمتـــه أولا ولان الرشيد أخ لابنه الفضل بالرضاعة .

وأخلص يحي لهرون الإخلاص كله ، ورأى ملكه ملكه ، فحاطـــه حتـــى بدمه . فقد شره أخوه _ الهادي _ إلى الخلافة يؤثر بها ابنه ، فسعى لتنـــازل الرشيد عن حقه فيها ، والرشيد فتى تنقصه الحكمة والصلابة ، فهو في رواية لم يزد عن السادسة عشرة ولعله أكبر منها بقليل ، في نهاية العقد الثاني مـــن العمر ، وان زاد ففي درجة أو درجتين . ففي نوبة من نزق الصبا ولهوه في حاضره عن غده يكاد يجيب رغبة أخيه ، فيخلع نفسه مكتفيا بابنة عمه زبيدة ، التي يجد بها وجدا شديدا ، والعيش الهنيء الذي هو فيه ، غير أن " يحـــي " يفتح عينه على جلال الخلافة وأبهة الملك ويخشى أن يتطرق إليه اليأس فيقول له : وما أدراك أنهم سيتركون لك ما أنت فيه ؟ وما يزال به يشد من عزمـــه ويقوي من نفسه ، حتى تصبح نعم على فمه أقرب منها إلى الهادي قبة الفلك ، بعد أن كانت جد قريبة تكاد تلفظها شفتاه . . .

ولم يكن يخفى على الهادي ورجاله أن الأمر أمر يحي لا أمـــر الرشـــيد ، فيتلطفون به ويدارونه فيعلو عليهم دهاؤه ، فيأخذونه بالـــشدة فتتـــأبى علـــيهم صلابته ، فيأمر الهادي بسجنه ثم يخرج بنصيحة له .

ترى يا أمير المؤمنين لو وقع الذي نحذره _ وبعد

عمر طويل _ أليس في عمومتك وأبنائهم ، مثل فلان وفلان من يطمع في الخلافة ويشرأب إليها . . .

نعم . . في عمومتي وأبنائهم مثل هؤلاء . . .

أيسلمون بها لابنك وهو طفل !؟ .

لا أظن . . إذن فالرأي إن لا تخرجها من ولد أبيك ، ولو لم تعقد لهرون لكنت حريا أن تعقد له . . اتركها ألان لهرون ، ومتى كبر ابنك أجيئك به يتنازل عن حقه فيها .

سلمت . . ثم تعاود الهادي نزعاته فيرى أن لابد من التنازل لابنه فيأمر بحبس يحي ثانية ويشتد المرض على الخليفة ، ويجمع أعداء يحي على قتله في السجن خيفة أن يغري بهم هرون غدا ويعاجلهم موت الخليفة عن ذلك . . لعب القضاء دوره فنجا يحي .

مات الخليفة الهادي في عام ١٧٠ هـ فكتب يحي إلى الآفاق بذلك ، وأن الخليفة أصبح هرون الرشيد . كتب بذلك وكتب التاريخ معه أن بعثت دولة جديدة ، هي دولة البرامكة . .

ملك وسلطان

ملك وسلطان

كان الرشيد ينادي يحي بن خالد يا أبت

وكان جعفر بن يحي عنده بمنزلة لا تعد لها منزلة الأخوة والقرابة . . هـي حالة انفرد بها . فقد كان السبيل الذي يتوسل به الناس إلى مرضـاته ، لا ذوو الحاجات منهم فحسب ، وإنما ذوو الحاجات من أقربـاء الخليفـة وعمومتـه وأبنائه .

وقال الرشيد للشيخ الوقور يحي " قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى " ودفع إليه خاتمه . . أعطاه سلطة لا تحد ، ولكن يحي أراد لوفور عقله أن يحدها فهو يصدر في أموره عن رأي والـدة الخليفة _ الخيزران _ هذه الإمرأة التي شاركت المهدي في سلطانه و أرادت مثل هذه المشاركة في سلطان ابنها الهادي فلما لم تقدر على ذلك كادت له وبشرت بموته وكانت من أعوان ابنها هرون . . فلما جاء يوم سـلطانه ، رأى القـيم على هذا السلطان أن يرضي لها هذا الغرور فيأمن جانبها يحسب حـسابه ، فقد كانت متنفذة يركن إليها القادة ويسعى بحاجاتهم إليها الناس ، وكانت فـوق هذا مطاعة الكلمة عند ابنها هرون . فأقل ما تلوح بـه إذا أرادت ، وإذا لـم تشرك بهذا السلطان ، أن يحي استبد بابنها وبشئون الدولة .

انسجم أمرها مع يحي طوال ثلاث سنوات ، كانت مخلصة إليه كما كان مخلصا إليها . تدافع ابنها عن أن يولي أحدا من أعداء يحي عملا ذا خطورة . فلم يستطع أن يولي الفضل بن الربيع ديوان الخاتم إلا يوم وفاتها ، وقال له وهو على قبرها : وحق المهدي _ وكانت عنده يمينا بالغة _ إني لأهم لك من الليل بشيء فتمنعني أمي فأطيع أمرها .

ولما فوض الرشيد أمره إلى يحي أراد ليتقن هذا العمل الذي وكل إليه ، أن يستعين بأولي الخبرة فيه فكلف الرجل الكفؤ _ أبا عبيد الله _ وزير المهدي أن يقوم بديوان الأزمة ، و هو أشبه ما يكون اليوم بديوان المراقبة العام لحسابات الدولة ، ويضيف إليه دواوين أخر ، فلم يقبل أبو عبد الله ، فقال يحي آسفا : هذا رجل يرى أن الأمر لا يصلح إلا به . وتركه ، وأقبل على الأمر يدبره ويحكمه ، ويستعين عليه بولديه الفضل وجعفر .

وكانت الرسائل تصدر عن يحي إلى كافة الأيالات الإسلامية ، ولكنها تحتاج إلى تمام نفاذها إلى خاتم الخليفة يوقع عليها ، ولهذا الخاتم وزير وديوان أنشئ منذ الدولة الأموية ،ويستطيع وزير هذا الخاتم أن يؤخر مايرد إليه من الوزير المسئول الأول ويتعلل عليه بالتوقيع ، وفي هذا ما فيه من الحد من سلطة الوزير الأول . فشكا يحي إلى الرشيد أن حامل الأختام يؤخر كتبه ويتعلل بتوقيعه،فأصدر الرشيد إرادته أن يكاتب يحي العمال عن نفسه، وأن يكتفي بتوقيعه وحده على الكتب،وأن يقصر أمر ديوان الخاتم على توقيع الكتب التي

تصدر عن الخليفة مباشرة ، وليس فيما بين أيدينا من الكتب ما يشير إلـــى أن الرشيد عاد فألغى شيئا من هذا التدبير ، غير ورود عبارات يـــشتم منهـــا أن الرشيد كان يحد من سلطة الوزير الأول أو يزيد في سلطة وزير الخاتم ،
" وفوض الرشيد أموره كلها في عام ١٧٨ هــ إلى يحي بن خالد " ونحـــن نعرف أن الأمور كانت مفوضة إليه قبل هذا العام فمعنى هذا أن التفويض كان يسحب منه عاما ، ويعطي إليه التدبير في عام آخر .

لم يلغ الرشيد هذا التدبير صراحة ، ولكن وظائف الدولة وهي لا تلوذ بغير تعامل هو إلى إرادة الخليفة فقد كان الخليفة قادرا على أن يجـــور بعملـــه أو تعامله على سلطة من يشاء على انه وان جاء تفويض الخليفة ليحي مطلقـــا ، يتناول الولاية والعزل ، إلا أن هذه الشئون الكبرى من ولايات وعـــزل عـــن الولايات ما كانت لتتم إلا بأمر الرشيد وإرادته ، وان جاءت _ بعض الحين _ على غير إرادة يحي . فقد ولى الرشيد عيسى بن ماهان على خراسان _ على غير ارادة يحي ورأيه _ فلما حمل إليه عيسى خراج خراسان وكان مقـــدارا عظيما ، التفت إلى يحي وقال له كالمازح : هذا أثر ما ارتأيناه وخالفتنا عليه . فقال : أنا كنت أتمنى أن يصيب أمير المؤمنين برأيه و أخطئ ، ولكني أخشى أن يكون وراء هذا ظلم كبير للناس ، ولو أردنا ظلمهم _ أي الناس _ لجئناك الآن بأضعاف هذا المال على أهون سبيل وأقل كلفة . فقال الرشيد : وكيف . قال . نبعث إلى فلان _ وأسمى تاجرا _ فيأتينا بالعقد الذي ساومناه عليه بمبلغ كبير من المال وأبى بيعه ، فننكره

عليه ولا يقدر علينا ، وهكذا نصنع بغيره حتى نسوق إليك مالا كثيرا .

وحديث عيسى بن ماهان يجيء في عام ١٨٣ هـ ، وهو عام بدأ فيه أو قبله بقليل ينحرف قلب الرشيد عن آل برمك .
وفيما عدا هذه وغيرها قليل كانت ولابد أن تكون ، إذ كان الخليفة الرشيد القوي بنفسه وشخصيته ، فقد كانت الولايات تعقد ورأي الوزير يحي فيها ظاهر ، فأكثر العاملين عليها هم أصحاب البرامكة ورجالهم ، حتى أن الرشيد لما نكبهم طلب إلى هذه الولايات أناسا ليسوا من رجالهم فعقد للخصيب على مصر . . وليس من معنى أنهم من رجال البرامكة أنهم ليسوا من رجال الرشيد بل هم هم عرب _ على الأعم _ أولا _ و البرامكة هم رجال الرشيد _ ثانيا _ فرجالهم رجاله . ويقول يحي للرشيد وهو في سجنه : لقد كان سلطانك سلطاني ، ولو علمت أحدا من أعدائه ، لكنت أول من يشتد عليه . فهم يشيرون بالولاة من رجالهم أن آنسوا بهم الكفاءة والولاء لهذا الملك ، وليس هنا ما يمنع الرشيد أن يجيب الرغبة وإذا كان يعرف من هم أقدر ممن يسميهم البرامكة ، فله أن يقدمهم و رأيه الأمثل . فشد ما عزل و أمر بالعزل ، و شد ما ولى على الولايات و أمر بالعزل عنها . بلغه أن عامل مصر موسى بن موسى عازم على الخلع فقال : لاعتزلنه بأخس من على بابي فأشار عليه جعفر بعمر بن مهران وكان خامل البزة مشوه الخلقة و لكنه داهية كفاءة وفضلا ، فأمر بتوليته و سار إلى مصر .

بل له أكثر من ذلك ، فهو يولي الفضل على خراسان

_ الابن الاكبر _ لوزيره و أخاه في الرضاعة ، ثم يـــولي جعفـــر مـــصر ، فيديرها عامل من قبله ثم يصرفه عنها ويعود ويوليه على خراســـان ، ولكنـــه قبل أن يرتحل إليها .

وفي هذا ما فيه من توكيد لقوة الرشيد وبالغ نفوذه .

وليس أدل على هذا النفوذ من أن ولاية جعفر على خراسان كانت في عـــام ١٨٠ هـــ و أنه عزله عنها بعد عشرين يوما ، فوجم جعفر لهذا وجاءه أشجع السلمي يهون عليه .

أمست خراسان تعزى بما	أخطاها من جعفر المرتجى
كان الرشيد المعتلي أمره	ولى عليها المشرق الأبلجـــا
ثم أراه رأيـــــه أنـــــــه	أمسى إليه منهم أحوجـــــــــا
فكم به الرحمن من كربة	في مدة تقصر قد فرجـــــــا

فضحك جعفر وقال : هونت على العزل وقمت لأمير المؤمنين بالعذر .

وبعد حديث الولايات أو قبله يأتي حديث المال والتصرف به . فالمال الذي يرد على الحاضرة يوضع في بيت المال ، وبعد أن يقوم الوزير بصرف النفقات من رواتب وشحن ثغور ،فهو إلى أمر الخليفة . وقد كان البرامكة فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه. . والرشيد لم تعرف الدولة الإسلامية قبله أو بعده أسخى منه يدا وأكثر

نائلا ، فالمال الذي يطلقونه له يجب أن يكون بالغا لأنه كان يقوم بأعطياته ، وقد خلف _ مع هذا _ في خزائنه ستين مليون دينار وهو ما يعادل الثلاثين مليون جنيه بحساب اليوم .

وقد يقفر بيت المال في ساعة من ساعات كرم الرشيد ، فيضطر إلى المال فيحتالون له بقرض ، حتى يرد الخراج . وليس هذا بالمستغرب إذ كان لا يحسب في باب الغرابة _ بتاريخ هذا العصر _ أن يرد مال عظيم من نواحي الموصل _ هو بقايا خراج _ فيأمر به الرشيد جملة إلى بعض جواريه ، فيستعظم الناس ذلك ويتحدثون به ، ويصل الخبر إلى الشاعر أبي العتاهية فيصيبه شبه جنون ، لا على أن هذا المال استنفد من أيدي أناس هم أحوج إليه بكثير من هؤلاء الجواري ، وإنما على أن لا يكون له نصيب ولا تتعلق كفه منه بشيء ! فيدخل على الرشيد و ينشده :

الله هون عندك الدنـــــــيا وبغضها إليكـــــــا
فأبيـــــت إلا أن تصغـــــر كـــل شيء في يديكا
ما هانـــت الدنـــــيا على أحــد كما هانت عليكا

فيأمر له بعشرين ألف درهم .

فحاجة الرشيد إلى المال بعض الحين ،هي التي سولت إلى بعض المؤرخين أن يظنوا أن يده كانت مغلولة عن هذا المال ، لان البرامكة حازوه دونه حتى كان يحتاج إلى اليسير منه فلا يقدر عليه .

فإيراد الدولة في عصره يزيد على السبعين مليون دينار . يهب منها ما يشاء لان الجزء الذي يذهب إلى النفقات العامة قليل ، ففي غير حديث الروم والأوقات التي يحتاج فيها إلى المال لتعبئة الجند وقمع فتنه كان يصرف على إدارة شؤون هذه المملكة قليلا . فالذي يبقى للخليفة بعد هذا هو شيء كثير ، يتصرف به كيف شاء وعلى أي الوجوه أحب . ولعل الذي يجب _ هنا _ أن يفهم من حديث حاجة الرشيد إلى المال بغض الحين ، أن ذلك كان لان يده مبسوطة في هذا المال يقارب الصواب أكثر من الذي يذهب إلى أنها مقبوضة عنه . ولا يضير الرشيد وسلطانه أن تعلل عليه وزيره فلم يجبه في كل حين إلى رغباته ، فهو يعلم أن يده لا تمسك شيئا . . كالسحاب . .

يغنيه اسحق بصوت فيقول : لا أثيبك عليه فقد أثبت أباك عليه ألفي دينار ، فيقول له عجيب أن لا تذكر إلا هاتين الإلفين وقد وهبت أبي ما يربو على المائتي ألف دينار ! فيستعظم الرشيد ذلك و يردد مائتي ألف دينار !! ثم يسأله : وكم ترك لك أبوك ؟ فقال : ترك دينا هو خمسة آلاف دينار . فيقول الرشيد : والله لا أدري أينا أشد تضييعا .

وإبراهيم الموصلي والد اسحق ، في جلال قدره ورفعة فنه وقربه من نفس الرشيد و البرامكة ، ليس بالكثير عليه أن يصله منه هذا المقدار من المال وهو _ بعد _ ليس الاوحد الذي تصل إليه مثل هذه العطايا بل هناك غيره كثيرون . . . وفي سيرة الرشيد حديث طويل لهذه العطايا والهبات الطائلة ، حتى ليظنها القارئ من صنع الخيال ، ومع أن حديثها لا يخلو من المبالغة ،

غير أن سعة المملكة الإسلامية ومقدار خراجها ووافر جبايتها ثم طبيعة حكم العصر ، تساعد على تخليها وأنها حقائق وليست من عمل الخيال .

وحديث سلطة البرامكة وسلطة الرشيد يبقى حديثا ناقصا ، إن لم نعرض على القارئ صورة لشخصية الرشيد .

فأول ما يطالعك منه مهابة في الخلق ، فهو أبيض مسنم وسيم جعد قد وخطه الشيب ، وهي صفات تضفي عليه جلالا ، وهو كذلك . ثم يأتي بعد هذا من خصائصه النفسية والخلقية التي يسهل مطالعتها هذه القوة التي تتفرع إلى دين وثيق ، وحب للدنيا وثيق ، وليس في حب الدنيا والآخرة من تضاد ، إذا كانا ينبعان من وفرة حيوية وفهم صحيح للدين : " كان من أغزر الناس دموعا وقت الموعظة وأشدهم عسفا في وقت الغضب والغلظة " روى أبو البختري وهب بن القاضي قال : كنت عند الرشيد يوما فاستدعى ماء مبردا بالثلج ، فلم يوجد بالخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك وأحضروا له ماء غير مثلوج ، فضرب الغلام بالكوز واستشاط غضبا ، فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ قال : قل . قلت : قد رأيت يا أمير المؤمنين ما كان من الغير بالأمس _ يعني زوال دولة بني أمية _ و الدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، فلا تعود نفسك الترف و النعمة ، بل تأكل اللين و الجشب ، وتلبس الناعم والخشن . فنفحني بيده وقال : والله لا أذهب إلى ما تذهب إليه بل ألبس النعمة ما لبستني ، فإذا أتتني نوب الدهر عدت إلى نصابي غير خوار .

وكان يصلي غير المفروض نوافل كثيرة ويحج عاما بعد عام ، وإذا لم يحج أحج كثيرا من الفقهاء _ على نفقته _ باللباس والنفقة السابغة .
ويتصدق كل يوم من صلب ماله ولا يقعده شيء عن الغزو بنفسه ، فهو يقود الجيوش إلى مملكة بيزنطة ، يهدم الحصون ويفرض الجزية . وفي غزو الروم إحاطة للملك وحفاظ له ، قبل طلب الأجر والمثوبة فيه .

وفي هذا يقول الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده	فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر	وفي أرض البنية فوق طور
وما جاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الامـــور

وهو كذلك لمن يطلبه في هذين المكانين ، مكان الغزو والحج ، ولكنه في غيرهما إن أردنا الدقة والنصفة هو خلف الستارة . . .
ليلتين من كل أسبوع يتسمع إلى هؤلاء المغنين والزامرين الذين رتبهم طبقات ، ويلي نظره من هذه الوجوه الحالية . . قيان تخطر في الأبهاء والحجرات ، جمهن أو جمعن من أنحاء هذه المملكة الواسعة مختلفات الديار ينتظمهن الحسن والجمال . .
وهل في هذا من ضير ؟؟ فهن ملك يمينه ، وإذا ما راح بين النظر والسماع بأكواب من نبيذ ، فلا ضير أيضا ، فقد أفتى به كثير من فقهاء العراق . . .
لا ضير ولا ملامة ، ما زالت مثل هذه الحياة الناعمة المترفة لا تجور على عزمه ولا تلهيه عن إدارة ملكه ، وفي غير هذا اللهو الذي لا يلهيه ولا يأخذ عليه جماع

وقته ، كان الناس يرون فيه شبها من المنصور الخليفة ، الذي أقام المملكة و أرسى قواعدها و أحاطها من عزمه بما حفظها إلى ما وراء عصره بأجيال ، وتلمح هذا الشبه في شدة وطأته على الذين يخشى منهم على ملكه فقد جاؤه بأخي رافع بن الليث _ الثائر المعروف _ فما ألهته سكرات الموت التي يعالجها عن أن يأمر فيه وقال والله لو لم يبق مني إلا أن أحرك شفتي لأمرت فيك بالقتل . ثم غم عليه ، ولمل أفاق من غيبوبته أمر أن تفصل جثته ، ففصلت أربعة عشر شلوا وهو يأمر بالطالبين أن يخرجوا من بغداد و ينفوا إلى الحجاز .

وإذا ما تعديت هذا في استكناه خلق الرشيد لتستوفي صورته ، فهو كتوم لسره _ الذي يتعلق بالملك _ ويهمه أن يطلع على أسرار رعيته _ فيما يتعلق بالملك أيضا _ فقد قيل فيه أنه كان داهية كتوما لإسراره ، ومن أعلم الناس بأسرار رعيته ومن أشدهم بحثا عنها .

تفئ هذه الخلال كلها إلى عاطفة مشبوبة تلين من النقيض إلى نقيضه ، وتقارب من ثورتها العسف و الطغيان ، لولا هذه الروافد الجميلة التي تنساب إليها من فيض الدين الرحيم . . .
الذي يرى القتل في غير ما توجب الشريعة ، وإحاطة الملك حوبا عظيما .

اتهم عبد الملم بن صالح من أقربائه أنه يطمع إلى الخلافة ، وكان الواشي به ابنه وغلامه فحبسه ، ولما أحضره أبرق له و أرعد وكاد يقتله ، ثم قال : ولكني لا أعجل بعد أن وضح الأمر حتى أرى

رأيا يرضاه الله . . . ثم شهد عنده ببرائته عبد الله بن مالك ، فهم أن يطلقه توا فقال لا تقارب بين عفوك وسخطك ، ولكن أرفق به في محبسه . . فكان كما قال .

وقد كان من أثر هذه العاطفة المشبوبة ، أنه كان من أرق الناس وجها . قيل أنه كان لا يملأ نظره من يحي لسنه ولعقله ، و لهذه الرعاية الحسنة التي تعهده بها من لدن كان فتى يقوم على تنشئته ورعايته . ومن أثر هذه العاطفة أيضا أن يحيي إذا أراد نصحه في أمر لم يجبه بهذا النصح ، مخافة أن تجمح به العاطفة فيلج في العناد وإنما كان يضرب إليه الأمثلة ويذكر له من سير الملوك و الخلفاء ما يكفل نفاذ النصيحة وتوكيدها في نفسه .

ويتسق مع هذه العاطفة هذا الحب للشعر و هذه الإثابة عليه ، فالرشيد من أكثر الخلفاء ميلا إلى الشعر ، يطربه ويستخفه المديح ويهزه هزة الأريحية ، فينيل الشاعر مناه وفوق مناه .

تعرض إليه العباس بن الأحنف في طريق خراسان فقال له :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا	ثم القفول فقد جئنا خراسانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط	سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له : اشتقت بغداد يا عباس . وأذن له بالرجوع _ خاصة _ وبثلاثين ألف درهم . وكان يغالي بشعر أبي العتاهية ويحفظ شعر ذي الرمة .

وغناه مخارق :

يا ربع سلمى قد هيجت لي طربا	زدت الفؤاد على علاته وصبا
ربع تبدل ممن كـــان يســــكنه	عفر الظباء وظلمانا به عصبا

فبكى وشرب رطلا ، وقال : حاجتك يا مخارق . قال : أن تعتقني _ يا أمير المؤمنين _ أعتقك الله من النار . قال : أنت حر لوجه الله : فأعد الصوت . فأعدته فبكى وشرب مع البكاء رطلا آخر . فقال ، أحسنت ، وسلني حاجتك ! قال : ضيعة أعيش بغلتها ، قال : قد وهبتك . ثم غناه ثالثة ، فوهب له منزلا وفرشا وخادما .

وترق هذه العاطفة فيبكي بين يدي ابن السماك ، وهو يعضه ، دونما استعانة بشعر أو غناء ، ثم ترق وتسمو فتصل الذروة في الجمال والجلال في هذه الحادثة .

حضر غدائه أبو معاوية الضرير ، ولما انتهوا منه انتحى أبو معاوية ومن معه جانبا يغسلون أيديهم فيه ، ولما أكمل هذا الضرير غسل يديه قال له أحد الحاضرين : أتدري من سكب الماء على يدك ؟؟ قال : لا قال : هو أمير المؤمنين . فالتفت أبو معاوية إلى الناحية التي فيها الرشيد . قال : أمير المؤمنين يفعل هذا إكراما للعلم والعلماء ؟؟ قال الرشيد : نعم . فدعا له أبو معاوية بدوام الملك والسعادة .

فالرشيد ، وهو هذا ، يصعب الاستبداد عليه والافتئات

على حقه وسلطانه ، لمن يريد هذا الاستبداد ويغمد إلى هذا الافتئات ، ولكنه وهو رجل عاطفة يسهل مثل هذا كله ، إذا كانت اليد ماهرة وقدرت على أن تسلك إلى هذه العاطفة دون أن تنبهها أو تثير منها ، فهو ينصح أبا البختري إذ ينهاه أن يعود نفسه الترف ، والدهر قلب و الأيام دول ولكن العتاهي إذ يحضره الرشيد مائدته ، وقد حلت وطابت ومجلسه وقد زخرف ، حتى ليظن وصفه يعجز الشعر فيطلب إلى الشاعر أن يصفه _ قادر على أن يبكيه في تلك الساعة يقول :

عش ما بدالك ســـــــالما   في ظـــــل شاهقة القصور
يسعى عليك بمـــا اشتهيت   لدى الروح أو البـــــكور
فــــــإذا النفوس تقعقعت   في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنـــــــــــــا   ما كنــــــت إلا في غرور

ويطيل بكاؤه حتى يتلوم الحاضرون على العتاهي فيقول : دعوه ، رآنا في ضلال ، فكره أن يزدنا منه .

فالعبرة ليست في صواب الفكرة أو خطئها ، وإنما في كيفية إيصالها إليه والطريق التي يحب أن تسلكها والساعة إلي يجب أن تتخيرها . . ولا مشاحة أن البرامكة كانوا أقدر من غيرهم على ذلك ، وقد درسوا الرشيد وعايشوه ، وساعفتهم الفطنة والدهاء ، فهم أعرف الناس بمواطن هواه وما يسره وما يرضيه . قال جعفر للموصلي : إن الرشيد يحفظ شعر ذي الرمة حفظ الصبا ، فغنه به واجعل جائزتك أول مرة أن ل يغنيه أحد غيرك بشعر هذا الشاعر . و تم له ذلك فعمل من شعر ذي الرمة مائة صوت ،

وصل إليه بسببها خير كثير . وهم يوصلون إليه شاعرهم أبان بعد أن إليه نظم قصيدة بهجاء الطالبين ، لمعرفتهم بميل الرشيد إلى ذلك ، وكان يحيى يقول وكأنه يجمل هذه الحال : ليس الحكمة أن تجبه الملوك بالنصح فتثور بهم العاطفة ويلج بهم العناد ، إنما السبيل أن تأخذهم باللين وتعرض إليهم بالأمر .

وليس من المصادفات أن يكون البرامكة حفظة لكتاب كليلة ودمنة ، حتى نظمه لهم أبان شعرا ، ليسهل عليهم حفظه ومدارسته . فالقضية ليست استبدادا على سياسة الخليفة وغلبته على جليل أموره وصغيرها ، وإنما هي استبداد على وغلبة على عاطفته ، فإذا هم يصنعون _ برضاه ووفاق هواه ومشيئته _ ما يشاؤن ، وما كان ليصح في منطق الحوادث غير هذا ، فالرشيد ليس بالخليفة المستضعف ، فهو قوة لها كل الخطر والحساب ، وليس في الدولة من قوة توازيها _ إذا شاء وشاءت الظروف . ولما تكونت الظروف وتجمعت الحالات النفسية ، إذا بهذه القوة تعصف بالبرامكة ، فإذا هم أثر بعد عين . . . فمثل هذا لا يقدر أحد على الاستبداد عليه ، إلا أن يكون قادرا على الأخذ بخطام هذه العاطفة . وقدر البرامكة على هذا ، ل يوم ولا عام واحد ، وإنما سبعة عشر عاما ، كانت تجيء بها أيام تكاد تنقلب عليهم الأرض ، ثم يسلس القياد أمدا طويلا . وإذا ما أسس فهم قادرون على ما شاءوا .

وليس أدل على حديث العاطفة التي تتحكم بالرشيد ، من أن البرامكة جاءتهم نذر النكبة قبل ميقاتها بطويل ، فلم

يأخذوا لها حيطة ولم يتلمسوا لأنفسهم سبل نجاة ، إذ كانت تجمح وتسلس فيظنون أخرها كأولها ، حتى جاءتهم بغتة وهم غارون كأن لم يحسبوا لها حسابا .

وسيرة البرامكة مع الرشيد كلها حوادث تدل على قوتهم و تمكنهم من عاطفته ، حتى كانوا يدخلون أنفسهم ولم التعميم ؟ حتى كان جعفر _ خاصة _ يدخل نفسه ، ثقة بمنزلته عند الرشيد ، فيما لا يجوز له أن يدخل نفسه فيه . وقد ذكر المؤرخون هذه الحادثة التي فيها كل الكفاية للدلالة على هذه المكانة . قالوا أن جعفر أراد _ يوما _ أن يخلو بنفسه وبأصحابه ولما تحللوا من وقارهم وخلوا إلى حديث أنسهم وشرابهم ، أمر جعفر حاجبه أن لا يدخل عليه أحد إلا عبد الملك _ أراد صاحبا له _ فظن الحاجب أنه يعني عبد الملك بن صالح من أقرباء الخليفة ، فلما جاء أدخله عليهم وكان عبد الملك هذا من جلال القدر و رفعة الشأن بحيث ارادة الخليفة على منادمته فأبى تنزيها لنفسه، فلما رآه جعفر تميز غيظا وكاد ينشق تألما ، وفطن عبد الملك فقال أشركونا بأمركم ، ودخل وتخفف من ملابسه وشاركهم بالشراب _ طبعا النبيذ _ ولم يخف على جعفر أنه يفعل هذا لأول مرة ومن أجله ، فقال له : حاجتك ؟ قال ليست الآن . فقال : لا بد . فقال : إذن هن ثلاث حاجات أريد أن تخاطب الخليفة بها ، أولها أن علي دينا هو ألف ألف درهم أريد منه فضائها ، والثانية ولاية يشرف ابني بها ، والثالثة أن يزوجه من ابنته فهو ابن عمها وكفؤ لها . قال : أما الدين فقضاه ، ولولا فقد عقد له على مصر ، والثالثة فأن أمير المؤمنين قد

أخذ عليه الشراب ، فهو لا يعي ما يقول . ولكن الشيد قضى الثلاث حاجات في اليوم التالي . ويقول جعفر بكرت على أمير المؤمنين فسألني عن يومي الفائت ، فحدثته حديث عبد الملك ، وهو يقول أحسن أحسن ، ثم سألني بم أجبته ؟ فذكرت له ما أجبته به ، فقال أحسنت أمض الأمر . . على أن الذي في التاريخ أن الولاية على مصر كانت للأب لا للابن . . وما ذكره جعفر فحديث مقتضب ، ولو أن التاريخ يذهب في سرد حكاياته إلى ما وراء الألفاظ ويحفظ بين طياته بتصوير صادق لحديث جلسة مفصل لما عدت الحكاية أن تكون وقعت على الشكل التالي :

كان عبد الملك جليلا مهيبا . قيل ليحي ولاه الرشيد المدينة من بين أقربائه؟ قال أراد أن يباهي به قريشا . وكان من جلال المكانة بحيث اتهمه الخليفة الرشيد بأنه يطلب الخلافة ، وكان معروفا بأنه من المقربين إلى البرامكة ، فهل هناك ما يمنع أن جعفرا اشتم من أحاديث الرشيد بأن ليس عنده ما يمنع من الأصهار إلى هذا الرجل الكبير ؟ ! وهبه لم يطلع ، لم لا يفرض ذلك ، وهل فيه ما يسوء الرشيد إذا تم التقريب بينه وبين قريبه الكبير بوشيجة من نسب ! ؟ ويبكر عليه جعفر فيجده مسرورا مرتاحا فيسأله الرشيد : كيف قضيت أمسك !؟ بل إن جعفر هو الذي حركه بلباقته المعهودة إلى هذا السؤال ، فيقص على الخليفة ما حدث بشكل يزيد سروره ، ويحركه لاستماعه . . ثم يصمت فيسأله الخليفة : وبم أجبته ؟ لم يذكر شيئا بعد . وهو قادر على أن لا يذكر شيئا ولكنه يلمح على وجه الرشيد رضى واطمئنانا ، بل أكثر من ذلك ، رغبة في أن يكون

أجابه إلى ماطلب . فيقول : وأجبته إلى ما طلب _ وهو إلى هنا واثق من منطقة و أنه قادر لو تراجع الخليفة أن يرد الحكاية كلها إلى حديث سكر ومجلس شراب . . غير أن الخليفة يقول إليه : أحسنت فالقصة لم تجر ، كما يراها التاريخ ، مجرد منزلة لجعفر عند الرشيد يعطي فيها ويولي على الولاية ويزوج ابنته ، وليس له المصادقة و القبول .

هي قضية مدروسة . لعل رضى الخليفة وموافقته محسوب فيها أكثر من رضا جعفر وآله ، بل لعله ليس لجعفر فيها إلا حساب المكان والساعة المتهيأة للقبل والمصادقة ، وقد حسب وأجاد ولم يعد الميقات ورو عداه _ قيد أنملة _ لما عداه وصاحبه شر كبير ، وهكذا كان شأنه وشأن أهله في تقدير الوقت الذي يريدونه فيه على أمر . .

ويأتي بعد هذا من حديث سلطة البرامكة أنهم كانوا أكفاء في أعمالهم ، أهلا للاطلاع فيما يعهد إليهم ، فهم يقومون بما يسند إليهم الرشيد من أعمال خير قيام ويتصرفون بها على وجوه يحمد أثرهم فيها . . " نهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وجبى الأموال وعمر الأطراف و أظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة وكان حليما عفيفا وقورا مهيبا" و قام الفضل بولاية خراسان خير قيام ، وعدل و أنصف ، وحمد أثره في ثورة يحيى الطالبي بالديلم ، وقدم به بغداد على أمان الرشيد و مثله جعفر فيما أسند إليه من عمل في بغداد وفي إخماد ثورة الشام ، فقد أصلح بين القبائل واجتث الفتنة وسكن الثائرة ، ولعل عمومتهم وأبناءهم وأبناء عمومتهم لم يكونوا دونهم اتقانا

لإعمالهم في مجالها المحدود .

ضمنوا بمعرفتهم طبيعة الخليفة أولا ، وبكفاءتهم ثانيا ، أن لا تقصر أيديهم وقدرتهم عن عمل شيء تصل إليه يد الرشيد وقدرته من عروض الحياة وشئون المملكة فهم بهذه الحال ، وهذه القدرة لا يستنكف عن التماس عونهم أي في البلاط من رجال الخليفة و أقربائه ويناشده الله أن يعمل في البيعة للامين ابن أخته ، وهو يقول أن ملكه ملكك وخلافته لك .

وهذا ابراهيم المهدي و أخوه الخليفة يحمد لهم عملهم في التقريب بينه وبين الرشيد ، ويصبح من أصدقائهم الخلص يرقب لهم _ الرشيد _ ويستقرئ لهم حركاته ، ليروا إلى أين انحرف عنهم ، أن أرادوه على ذلك وقد أرادوه .

وهذا عبد الملك بن صالح يخرج مشيعا لجعفر ثم يقول له ، وقد أبعد في تشييعه : اذكر حاجتك فقصارى كل مشيع الرجوع . فيقول: حاجتي _ أعز الله الأمير _ أن تكون لي كما قال بطئ العذري :

وكوني على الواشين لداء شغبة فأني على الواشي ألد شغوب

فيقول له جعفر : بل أكون لك كما قال جميل :

وإذا الواشي وشى يومـــا بها نفع الواشي بمـــــــــا جاء يضر

خطا وصواب

البرامكة قبل الرشيد

من الصواب أن نقول إن يحيى وولديه دفعوا الرشيد بدهائهم وكفاءتهم عن ممارسة كثير من شئون الملك ، ومن الخطأ أن نقول أن استجابة الرشيد لهم وتركهم يديرون الشئون ويصرفون الأمور كانت لنقص في الكفاءة والمواهب التي تعين على القيام بهذه الأعباء ، كما يحلو لبعض كتاب الغرب أن يقولوا ، ومستندهم الأول والأخير عدم جلوسه في مجلس المظالم . . . وعدم الجروس هذا كان لسبب أو لأسباب لا ترتبط بحديث المواهب والكفاءات ، منها أن حالة الملك الإسلامي أخذت تستقر في هذا العصر ، وأخذ جلال الخلافة يظهر على شكل لم يكن في أيام أخيه الهادي القريبة وأيام أبيه المهدي ، فكان النظر بعقد مجلس خاص يحضره الخليفة أصبح لايتفق وهذا الجلال انه عمل مقصور على الوزير الذي هو موضع ثقة الخليفة واعتماده . ويبقى للخليفة بعد ذلك أعمال كبيرة وشواغل كثيرة يظهر فيها موهبته ومقدرته :
يشارك في تنصيب الولاة وعزلهم . واستصفائهم إن اطلع على خيانة . وينهد لهذه الثغور المتخمة من دولة رومة الشرقية القوية يوغل فيها ، يطامن من كبريائها ويحرق معاقلها .

هوت هرقل لما عاينت عجبا   جواثما ترتمي بالنفط والنار

ومنها أن االبلاط أغرق بالترف والحياة الناعمة .

وأحب أن أرى هنا أن البرامكة كانوا يمهدون لهذه الحياة ويدفعون إليها الرشيد دفع ناعما رقيقا . فهم يستقبلونه إذا جاء قصورهم بالجواري ... وهذه دنانير جاريتهم المشهورة يفتتن بصوتها ، فكثير من التردد عليهم من أجلها حتى تشكوه زبيدة إلى عمومته فيقول مالي بها من حاجة وإنما أذهب إلى سماع صوتها . ويهب لها عقدا بثلاثين ألف دينار .

وكان ليحي جارية جميلة عدا دنانير ، استملحها الرشيد وصار يمازحها ، فقالت له يوما ، وهو داخل على يحي :_ ياشيخ ، أما لنا منك يوم ؟ فقال لها ما الحيلة !؟ قالت : استوهبني من هذا الشيخ . فاستوهبها ، فوهبها له .

وهؤلاء المغنون يرتبون طبقات : كما كان يفعل أكاسرة الفرس _ حذو القذة بالقذة _ ويبدعون أنواعا من الزمر والتنغيم .

ومنها أن الرشيد تولى الملك فتى ، لم يعد العشرين ، وان عداها فليس بكثير فكان ينقصه العلم والتجربة التي تعين على النظر في هذه المظالم وأين هو _ وفي رأي نفسه _ من هذا الشيخ الذي عركته السنون وعرمها تجربة واطلاعا و خلقا ودينا ، فهو ليس غير فتى في حجر أب يجله ويحترمه ويثق بعقله وعدله ويدين له بكثير ، حتى أنه لما كبر وتقدمت به السن بقي في نفسه أثر من تلكم التجلة والثقة ، واختلطت في نظرته إليه بقايا من النظرة في زمن الحداثة وظني أن هذا كان يحز في نفسه و غروره .

ومنها _ وأهما _ أن البرامكة قد قاموا في النظر في هذه المظالم على خير وجه مستطاع . في هذه المملكة الشاسعة رجل العلم فيها حفنة ، وفي الحاضرة ، وحفنات قليلة موزعة ولكن في الحواضر .ولهذا فالرشيد إذ يرى اعتراك الخيول وازدحام المتداعين وأصحاب الحوائج على أبواب قصورهم ، لا يرى في ذلك من إراحة بال له . أراحوني من التعب أراحهم الله .

على أن المتمعن في دراسة التاريخ هذا العصر ، كثيرا ما يقرأ مثل هذه الجملة ((وقال يحيى : إني ذاهب للرشيد لأجلس معه في مجلس المظالم)) فهل من معنى هذا أنه لم ينقطع عن هذه كل الانقطاع ؟ وهل كان يحضرها ليباشرها بنفسه ؟ لا شيء يمنع أن الرشيد انقطع عنها أخيرا . فهذا أبو يوسف القاضي في كتابه ((الخراج)) يحثه على عقد هذه المجالس ومباشرتها بنفسه ، ويدلل على ذلك بان فيها صونا لحقوق الرعية وحدا من ظلم العمال وأولاده . . ((فلو تقربت إلى الله_ عز وجل _ يا أمير المؤمنين _بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم رجوت أن لا تكون ممن احتجبت عن حوائج رعيتك ، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير في الأمصار والمدن ، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه ، فلا يتجرأ على الظلم ويأمن الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره ، فيقوي قلبه ويكثر دعاؤه . على أنه متى علم العمال وأولاده انك تجلس للنظر في أمور الناس يوما في السنة وليس يوما في الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم لأرجو لك بذلك أعظم الثواب)) .

وهذا كلام صريح لا غمغمة فيه ولا غموض ، في أن الرشيد كان لايجلس في هذه المجالس ولا يباشر النظر _بنفسه_ فيها ، وقد كانت هذه الحال داعية إلى تململ رجال أحرار خلصت نياتهم . وكانوا يرون _ في تذمرهم_ إن البرامكة هم الذين وقفوا دون الرشيد وذلك ، فقد كتب إليه _ الرشيد _ محمد بن الليث كتابا يقرعه فيه ويقول له ((اتق الله)) فان يحيي بين خالد لا يغني عنك من الله شيئا وقد جعلته فيما بينك وبين الله فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت بعباده وبلاده فقلت يارب إني استكفيت يحيى أمر عبادك أتراك تحتج بحجة يرضى بها)) .. إلى كلام غير هذا كثير . وكان جزاء هذه النصيحة أن رمي هذا الجل بسجن المطبق ، برأي يحيى ، ولم يخرج منه إلا حينما أخذ قلب الرشيد يتحول عن البرامكة .

اثنتان لا يكل النظر فيهما لغيره : معاقبة الذين يخشى منهم على ملكه وملك أجداده وعقاب هؤلاء الذين يرى في عقائدهم بعض الزيغ . كان أبو معاوية الضرير تحدث بحديث الأعمش عن صالح بن صالح عن أبي هريرة (إن موسى لقي آدم فقال : أأنت آدم أخرجتنا من الجنة وذكر الحديث . .)

فقال رجل من قريش وأين لقي آدم ؟؟فصاح الرشيد : زنديق زنديق! النطع والسيف !! ونجا الجل ، ولما يكد ، بشفاعة أبي معاوية .

وهو يثقل على الطالبين في سبيل الخلافة ، ولم يشفع عنده ليحي الطالبي ما وكد له من أمان ، ويكاد يقتل من ولد

عمومته عبد الملك بن صلاح على الظن في طلب الخلافة ، ويعزل الولاة على الشبهة . . . معذور هو قريب العهد من المنصور ومن السفاح الذي يقول للخراساني : أيا أتهمته فاقتله واو طفلا رضيعا وهو بعد لا يستطيع الفكاك من منطق عصره ، وكل العصور التي على شاكلته .

وهو يتعقب أسرار رعيته ويستطلع أخبارهم ليرى الطامحين والكائدين لملكه ، وحديث الملك وسياجه ورعاية الدين الذي قام به هذا الملك ليس فيهما كل الدليل على الموهبة في الحكم ، ولكن حديث مجلس المظالم والنظر فيه ليساهما كل على هذه الموهبة ، ولو أن الأمور ساءت في هذا العصر وازداد حيف العمال وعسف الولاة ، لكان لنا أن نتخذ من ذلك دليلا على عدم الموهبة ولكن الأمور لم تسء _ بالقياس إلى غيره من العصور _ فهو كغيره من عصور سبقت ، يختلط الشر فيها بالخير والعسف بالمرحمة ، وكغيره من عصور قريبة وزاهية ، تلت فيها خير كثير وشر كثير وعدل ونصفه وجور وافتئات .

لقد بعد العهد جدا بالخليفة يقيم نفسه قاضيا بين الناس . تلك حال تقضت وسيفي عليها الزمن ، فقد أصبح الملك عضوضا مغرقا في الترف ممعنا في الارستقراطية .

أصبحت عيشة الخلفاء والوزراء مناعمها ومفاتنها ، وأحاديث بذخها وترفها أقرب إلى حياة يخلقها خيال شاعر مبدع منها إلى حياة إنسان .
إن فيها ظلال من ليالي ألف ليلة وليلة .

في حياة الرشيد ماهو أدل على عدم الموهبة في الحكم من الجلوس في مجلس المظالم. من ذلك هذه العجلة في إمضاء الأمور وأسرار عليها ، ولو تبين له وجه الخطأ فيها .. فقد اشترى مرة جارية بمبلغ طائر _ يذكرون أنه مئة ألف دينار _ وأمر بدفع الثمن ، فأراد يحيى أن يريه عظم هذا المبلغ وأنه ليس لفظة خفيفة على اللسان ، فوضع المبلغ دراهم في أكياس وجعله في طرقة من القصر فلما رآه استعظمه وسأل خراج أية ناحية هذا ، فقيل له ليس هو بالخراج وإنما هو ثمن الجارية ، فقال فليدفع . . ومنه أنه أمر العمال أن يقبلوا توقيع خادم له هو سعيد الخفياني ، وينفذوا أمره بمئة ألف درهم .

وما إلى لك من حكايات مبثوثة في سيرته ، إن شككت في بعضها فليس إلى الشك فيها جملة واحدة من سبيل .. ولكن هذه الأفعال والتصرفات لها مبررها من حياة العصر ، وما كان لها أن تحسب على الموهبة والمقدرة بحال . فالمأمون ، وهو الذي لا يشك أحد في قدرته وموهبته ، قد فعل مثل هذه وأكثر أن الأفراح والأعراس التي أقيمت في فم الصلح احتفاء بزفاف بوران لم تحلم بها قصور الرشيد . . .

ففي سيرة الرشيد وغيره من خلائف يجب أن نحسب حساب العصر . فلا شك أن الرشيد غير ذي موهبة ولا يستطيع أن يحكم في عصرنا الحاضر ، إذ أن عصرنا لا يحتمل هذا اللون من الحكم . ولكنه كان خليفة استطاع أن يملأ عين رعيته طوال ثلث قرن وأزيد ، وإذا ما استثنيت المنصور والمأمون فهو على رأس قائمة الخلفاء من عائلته . ذلك لأن عصره ورعيته يحتملان هذا الإسراف . والحكم على هذه الشاكلة .

حياة وحياة

حياتان

" انه عصر المال يفيض بغير حساب ويجمع بلا شفقة من أقاصي هذه الإمبراطورية الفخمة ، ويستغل بتدبير هذه العائلة الممتازة من آل برمك ، ذات الرجال الموهوبين بجمعه واستغلاله ، ثم ينصب جزافا ، وينثره الخليفة والوزراء جزافا لإظهار عظمة البلاط . ويهمنا هنا أن نقرر حقيقة واحدة ، أن المال الذي كان يجمع بالعسف من رعايا هذه الامبراطورية الفخمة ، كان يتخذ دربه منكفئا لإطعام الفقراء وتشجيع رجال العلم والفن . . (١) " .

ليس كل الحديث _ هنا _ حديث إدارة ملك وتنصيب ولاة ، وليست كل المجالس هي للنظر في مغارم وللفصل في مظالم ، أن هي الإدارة وسبب لهذه الحياة التي يحياها هؤلاء الناس بعد الفراغ من أعمالهم وانقلابهم إلى قصورهم ومجالس أنسهم ، ليحيوا حياتهم الخاصة بعيدين عن أحاديث السياسة ومجالس الحكم . . فكيف كانت هذه الحياة ؟؟ . . هي ماشئت من ترف وما صور الخيال من نعيم .

وأول ما يطالعك من هذه الحياة كثرة الجواري واختلاف أعراقهن . هذه واحدة من جواري الرشيد تغني في مجلسه :

جئن من الروم وقاليقلا يرفلن في المرط ولين الملا
مقرطات بصنوف الحلا يا حبذا البيض وتلك الحلا

وهؤلاء جملة من جواريه رآهن الأصمعي مكتوبا على عصائبهن :

نحن خود نواعم   من اراض مقدسة
أحسن الله عيشنا   ليس فينـــا منحسة
فاتق الله يــــــا فتى   لا تدعني موسوسة

وهن من غير الروم ، ومن غير أراضي مقدسة ، من فارس ومن مختلف أنحاء هذه الامبراطورية الواسعة . ولا غرو فقصر الرشيد قي أبهائه الواسعة ومقاصيره كقطع الرياض ، هو المرتع الأول الخصب لهن ، فقد ذكروا أنه كان فيه منهن ألفان ، ومهما حسبت المبالغة فسيبقى الرقم عاليا والعدد كبيرا. وادل على حديث الترف أكثر من عددهن ، الإثمان التي كانت تدفع فيهن . فقد وصل الثمن بواحدة مائة ألف دينار ، واشترى غيرها من ابراهيم الموصلي بستة وثلاثين ألف دينار ، ثم قال في اليوم الثاني للفضل بن الربيع " ليست هذه من بابتنا " أعدها للرجل وسله أن يحط الثمن ستة آلاف ، فحطه الموصلي اثني عشر ألف دينار ، فقال الرشيد قولا مأثورا ما رأيت سوقه أنبل منه . . سوقة سوقة عدنا إليها كأنما هم جنس آخر بعيد عن حديث النبل والنبالة ، ونقده الثمن كاملا . واشترى ذات الخال بسبعين ألف درهم ، ثم عافتها نفسه لان قريبه ابراهيم المهدي كان يسبب بها في سالف الأزمان . فقال : من منكم لا يبالي أن يكون كشحانا لأهب له ذات الخال ؟ فقال أحدهم _ حموية _ أنا هو . فوهبها إليه واشتاقتها نفس الرشيد _ طبعا شوق برئ _ فزار حموية

وارتهن لها هذا " الحموية " ليجملها بعينه عقودا باثني عشر ألف دينار . فاستكثرها الرشيد وسأله عن أصل هذه العقود ، فحكى له حكايتها . فوهبها له بعد أن نقد أصحابها الثمن .. ويقولون إن الرشيد سر بيومه هذا وأقسم أن لا تسأله في يومه شيئا إلا وأجابها إليه . فسألته أن يولي حمويه الخراج في فارس سبع سنوات ، فكتب له بذلك ، واشترط أن يفي له بعد ذلك من يجيء بعده .

وفي القصر غير الجواري ، المهائر ، وهن زوجات الخليفة ، وهؤلاء لهن قصورهن الخاصة ووصائفهن من الجواري الغانيات . واشتهر في بلاط الرشيد من الزوجات والأخوات أم جعفر زبيدة وأخته علية ، أظهرتا مفاتن البلاط وجمال الملك : الأولى ببذخها وترفها . والثانية : في خفة روحها وسحر غناها .
سمت أم جعفر إن الرشيد يصطبح مع جواريه وان القاعات تموج بهن وتسطع فيها جواهرهن ، وهن والخليفة في أتم سرور ، فاغتمت لذلك وشكت الأمر إلى علية ، فقالت لاه لا عليك ، ثم خرجت وإياها يتقدمن صفا طويلا من الجواري بألوان الثياب وغرائب اللباس ، ولما رآهن الرشيد استقبلنه يغنين بلحن وضعته علية :

يا قاطعي اليوم لمن نويت بعدي أن تصل

فطرب الرشيد وأمر بأن ينثر عليهن ما في بيت المال ، وكان ما به ستة ألف ألف درهم ، ولم ير مثل ذلك ... وهو يوم ولهن مثله أيام .

كانت أم جعفر مغرقة في الترف ، فقد كانت تتخذ القباب من الفضة والآبنوس ، وكلاليبها من الذهب ملبسة بالوشى والديباج . وأنواع الحرير الأخضر والأحمر والأزرق . وكانت تشبك ما تلبس في قدمها من خفاف بالذهب . . . وكانت عليه الفتاة الحالمة الشاعرة . تطارح الشعر أن هزتها شياطينه من تقع عليه النعمة من خدامها . . براءة يتصل أمرها بالخليفة وإذ تقول في خادمها " طل " .

قد كان ما كلفته زمانـــا   يا طل من وجد بكم يكـــفي
حتى أتيتك زائرا عجـــلا   أمشي على حتف إلى حتـــف

لا يجد الرشيد أكثر من أن يأمرها أن لا تذكر _ طل _ ثانية ، فتمتنع الامتناع كله . . . يجب أن يكون " طل " في غير الموضع الذي يثير غضب الخليفة لا أتصوره أن صحت الرواية ، غير خادم إبله زري للتندر والضحك وتسمع أن الرشيد وأخا لها يضطحبان . فترسل إليها جاريتها ريق بكأسين ورسالة ومعها خادم يحمل عودا ، فتقدم الكأسين وتتناول العود لتغني بلحن لسيدتها :

حياكما الله خليلــــــــيا   إن ميتا كنت وان حيا
إن قلتا خير فخير لكـــم   أو قلتما غي فلاغيـــا

ثم تقدم لهما الرسالة " يا سيدي أختكما صنعت اليوم هذا اللحن على جواريها ثم بعثت إليكما جارية من أحذق الجواري لتغنيكما به ، هنأكما الله وسركما وطاب عيشكما وعيشي بكما "

وكان بجبينها بعض السعة غير المستملحة ، فاتخذت العصائب المكللة بالذهب فكانت فتنة .

وقد يستملح الخليفة جارية من جواري أم جعفر أو علية أو غيرهما ، فسرعان ما توهب لتغرق نقطة في هذا الخصم الزاخر من الحرم ، أو توهب له دون أن يستملحها هو ، وإنما يستملحها له من غير النساء رجل من الحاشية المقربين . قيل إن جواريه سحر وضياء وخنث ، وهن اللاتي كان يجد بهن ، وهبهن له الفضل بن الربيع وفيهن يقول الرشيد :

إن سحرا وضياء وخنث	هن سحر وضياء خنث
أخذت سحر ولا ذنب لها	ثلثي قلبي وترباها الثلث

وفيهن يقول العباس بن الأحنف على لسان الرشيد :

ملك الثلاث الآنســـات عناني	وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلهـــا	وأطيعهن وهن في عصيان
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى	وبه قوين أعز من سلطاني

ويكثر في حديث هؤلاء الجواري العتاب والدلال ، فيتوسط الشعراء _ حفظهم الله _ لإصلاح ذات البين واستعطاف الخليلات النافرات ، ويأخذون على هذه الوساطة جعلهم المعلوم ذهبا وفضة ، وقد يكون في ذلك لبعضهم غنى العمر . والشعراء ، وهم رقيقو العاطفة لم يضعوا الذنب مرة إلا على ظهر الخليفة كأنه لا يكفيه ما يحمل من أثقال الرعية وملكه دائما هو المتجني وعليه العزم .

والوزراء كالشعراء ، عليهم أن يشركوا أنفسهم في حديث الدلال والعتاب ونفار الخرد الكعاب .

قال يحيي البرمكي للعباس بن الأحنف : إن ماردة هي الغالية على أمير المؤمنين _ اليوم _ وانه جرى بينهما عتب فهي بعزة المعشوق تأبى أن تعتذر و هو بعز الخلاف وشرف الملك يأبى ذلك ، وقد رمت الأمر من قلبي فأعياني وأحرى أن تستعبده الصبابة فقل شعرا ليسهل عليه هذا السبيل فقال :

لا بد للعاشق من وقفـــة تكون بين الهجر و الصرم

حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى علـــى رغم

فدفع يحيي الشعر إلى الرشيد ، فقال ما أشبه بما نحن فيه ولكأني قصدت به فقال يحيي : وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود . وضحك عند " راجع من يهوى على رغم " أي " على رغم " فأمر له و أمرت ماردة بمال كثير .

ويسأل الرشيد الموصلي ع أحسن أبيات قيلت في عتاب حب وهو ظالم متعتب ، فأنشد أبيات جميل :

رد الماء ما جادت ذنائبـــــه ودعه إذا شيبت بخوف محاربه
أعاتب من يحلو لدى عتابـــــه واترك من لا اشتهي وأجانبه ومن
لذة الدنيا وان كنت ظالما عناقك مظلوما وأنت تعاتبـــــه

فأمر له _ كما تقول الرواية _ بثلاثين ألف درهم .

على أنه قد يكون للشعراء والفنانين في هذا المجال حديث غير حديث الوساطة، قد يعشقون هم إحدى هؤلاء الجواري ، وتطل الحسرة وتتصل الزفرة . كان يهوى الخليع جارية لأم جعفر من أجمل الجواري ، لها صدغان معقربان ، وكانت تخرج إليه إذا جاء فتقول له : أنشدنا شيئا مما قلت فينا . فيخرج إليها الصحيفة فتقول اقرأ معي ، فيقرأ معها حتى تحفظها ، ثم تدخل . وسأل صديقا له مكينا عند أم جعفر أن يعمل له على أن تهبها له ، فلم تفعل . هي في قصر الخلد كما ذكر في شعره :

رمتك غداة البين شمس من الخلد	بسهم الهوى عمدا فموتك بالعمـــــد
مؤزرة السربال مهضومة الحشا	معقربة الصدغين كاذبة الوعـــــــد
أقول ونفسي بين شوق و زفــرة	وقد شخصت عيني ودمعي على الخد
أجيري على من قد تركت فؤاده	بغصته بيـــــن التأسف والجهــــــد
سأشكوك بالإشعار غير مقصـــر	إلى عاصم ذي المكرمات وذي المجد

والظاهر أن أم جعفر هذه كانت موهوبة في اختيار الجواري عشق واحدة منهن أيضا مخارق ، فمنعته أم جعفر من المرور بقصرها _ دار المقر . . . فمر بزلالته يعارض قصرها من دجلة ويغني :

فأمرت برده فردوه ، وبعد الغناء والشراب وهبته الجارية . . حقا لقد كن ملكات شاعرات ، على قدر ما يستطيع العصر أن يفهمهن من حديث الملك والشعر .

و البرامكة _ لعلهم _لم يكونوا دونه في هذا الضرب من ضروب الترف والنعيم ، فعتابة أم جعفر تذكر بالكوفة _ بعد النكبة _ أن كان لها أربعمائة وصيفة ، وجعفر كانت تزف إليه القهرمانة الموكلة بالحرم كل أسبوع جارية بكرا ، ودنانير اشتراها يحيي بجمرة وافية من المال ، أصابتها الذبحة الكلبية ، فكانت لا تقدر على صوم رمضان ، فكان يحيي يتصدق _ من أجلها _ بمائة دينار كل يوم ، ويقول لإبراهيم الموصلي هل لك في خمسماية دينار إن طرحت عليها صوتك في :

" ذكرتك إن فاض الفرات دما "

ولك يا دنانير ألف دينار إن حفظته . فتهب نصف الألف أيضا إلى أستاذها في الفن .. الجواري بالألوف والمئات في قصور الرشيد ووزرائه وأقربائه ، ودون هذه الأرقام في قصور غير هذه القصور ، قصور الولاة والعمال ورجال الدولة .

ويجيء بعد حديثهن ، من أحاديث الترف الذي بدأت تغرق فيه هذه الدولة الناشئة ، والذي أخذ يحل من عزمها ، ويهيئها لليوم الموعود تداس تحت أقدام الغزاة ، حديث الغناء والشراب . فلقد تفننوا وأحدثوا في الغناء ضروبا مختلفة وأبدعوا أنواعا مستجدة ومستظرفة .

رتب الرشيد المغنين طبقات كالأكاسرة . الموصلي وزلزل وابن جامع في الطبقة الأولى . وفي الثانية سليم بن سلام وعمر الغزال ومن أشبههما . ويجيء في الطبقة الثالثة أصحاب المعازف

والطنابير . ولهذه الطبقات نظام وآيين محدد في العطايا والمثوبات ، فإذا خرجت العطية لمن هم في الطبقة الأولى ، جاز لهم أن يعطوا من دونهم ، وإذا كانت لأصحاب الطبقة الثانية ، فلا يجوز لها أن تعطي أصحاب الطبقة الأولى ، ويجوز لها أن تعطي من دونها ، وإذا كانت لأصحاب الطبقة الثالثة ، فلا يجوز لها أن تعطي أصحاب الطبقة الأولى ، ولا أن تعطي من هم في الطبقة الثانية . لا يجوز إعطاء من ه في الطبقتين دون الأولى كعطية الطبقة الأولى ، إلا أن ترفع طبقته أولا .. أفانين أوجبها الثراء و أدخلت على الألحان نغمات جديدة ، وحسبك أن الذي بدأ بالتجديد في الغناء ابراهيم بن المهدي .
وكانت مجالس الغناء تعقد في قصور الطبقة الحاكمة في أوقات مختلفة ، ويحضر فيها شيء من الشراب _ النبيذ _ وفي هذه المجالس يستبدلون ثيابهم بثياب خفيفة مصبغة مختلفة الألوان : صفراء وخضراء ، وتحضر فيها أكوام من الورد وضمائم الريحان .. وفي هذه المجالس أو قبلها أو بعدها بقليل ، تنهال على طبقات المغنين الفنانين الهبات والأعطيات ، ألوانا وأنواعا : ذهبا وتخوتا و قصورا وضياعا لان ثروة المملكة التي أخذت تتركز في يد هذه الطبقة لا بد لها أن تجد لها دروبا للضياع ، من مثل هذه الألوان من الترف الغليظ المنحل .

اشتهى ابراهيم الموصلي أن تكون له ضيعة " سحارى " فغنى الرشيد :

جنان " سحارى " ليس مثل منظر * لذي رمد أعيا عليه طبيب
ترابك كافور ونـــــــورك زهرة * لها أرج بعد الهدوء يطيب

فأمر له بالثمن سبعة عشر ألف دينار ، ولما جعل التوقيع فيها إلى جعفر ، وقعها إليه بعد أن زاده خمسة آلاف . . . والظاهر أن هذا الموصلي ، وهو الفنان الأول في هذا العصر ، كان أحظى هذه الطائفة . وشاركت في حياة الغناء وأضفت على البلاط " القصر " _ من هذه الناحية _ صبغة رومانطقية " علية " كما أسلفنا ، وأخوها ابراهيم . . . هذا التنين الأسود ابراهيم تعدت روعته ، وأضفى من جلال وجمال فنه على بلاطين غير هذا : بلاط الأمين ومثله رشيد ، كما يقول ذلك كتاب الغرب الذين تعرضوا لحديث هذا العصر .

ويأتي بعد التفنن بالغناء ، من شارات النعيم والحياة المترفة ، حديث الموائد . . . ولم يكونوا فيها أقل ترفا منهم في غيرها . كان يوضع على مائدة الرشيد ثلاثون لونا من الأكولات المختلفة . وكان يجلس إلى جانبها الأطباء ... وهكذا صنع البرامكة .

دعا ابراهيم المهدي مرة ، فكان من جملة ما قدم على المائدة جام متخذ من ألسنة السمك الصغيرة ، بلغت تكاليفه مائتين وسبعين دينارا .

وأحضر جعفر بن سليمان على مائدته ، يوم زاره الرشيد في البصرة ، ألبان الظباء وزبدها وسلاها ولباها ، فاستطاب الرشيد جميع طعومها ، فغمز جعفر بعض غلمانه ، فأطلق عن الظباء و خشفانها حتى مرت في العرصة أمام الرشيد ، فلما رآها استخفه الطرب حتى قال : ما هذه الألبان وما هذا اللبا

والرائب الذي بين أيدينا ؟ فقال له :حليب هذه الظباء أقتنيت وهي خشفان .

وجعفر بن سليمان من أغنى أغنياء عصره ، ولكنه ليس فوق غنى البرامكة ، وقدرته دون قدرتهم . وكان من الترف هذه الأثواب وفاحش أثمانها و كثرتها .

تركت الخيزران أم الرشيد ثمانية عشر ألف قرقر من الديباج ، ولا أعرف كم تركت أم جعفر من هذه الأثواب ولكنها وهي دونها غنى ليست أقل منها شرفا .

كان الرشيد لا يلبس الثوب إلا لبسة واحدة ، وقد يزيد ثمنه على ألف دينار. وكان جعفر البرمكي من المتأنقين في الملبس بين جماعة عصره .

وكان في قصور البرامكة ما في قصر الرشيد من آلة ترف وبذخ ، حتى ربما وجد فيها ما ليس في قصره . ولا يزال في بيت المال أموال ، ولا تزال الجمال تتقاطر من أنحاء هذه المملكة ، تحمل العدول الموسقة من الخراج ، فينفق على الشعراء ، شعراء الرشيد و شعراء البرامكة ، فقد كان لهم شعراؤهم . وأقاموا أبان اللاحقي يرتب لهم الجوائز ، كل بقدر تجويده وغوصه على المعاني المنتقاة في مدح السادة الوزراء .

مروان بن أبي حفصة يأخذ من الخليفة مائة ألف درهم على قصيدة واحدة ، من جملة قصائد أخذ عليها جوائز ليست

بالقليلة ، ولكن يقول متذمرا : أبان يأخذ من جماعته _البرامكة _ في عام ا أخذه من الرشيد في أعوام ، وفي قصيدة واحدة ما آخذه منه في دهري .

ويعطي جعفر مروان هذا ثلاثين ألف درهم ومثلها لأبي البصير ، وينقص أشجع فلا يعطيه إلا ثلاثة آلاف ، فلا يرضاها ، فيقول متعتبا :

أعطيت مروان الثلا	ثين التي زالت رغاثه
وأبا البصير وإنمـــا	أعطيتني منهم ثلاثـــة

أشجع لا يزال عاتبا فليزد عشرين ألف دينار .

ويأخذ أبان منهم على نظم كليلة ودمنة سبعة عشر ألف دينار .

ينتظم الشعراء هالة جميلة حول الرشيد وحول البرامكة . هم زينة البلاط وأجمل ما فيه .. هم والموسيقيون الأشياء الجميلة التي ترتفع بالأرواح في قصور أغرقت في مفاتن الأجساد .. والعلماء ؟ إن مكانهم فيها معروف، وان الصلة التي يمتون بها لقوية عند هؤلاء القوم .

وأين حصة الفقراء الذين ذكرهم الكاتب الغربي .. ؟؟

ما ذكرناه كان لإظهار عظمة البلاط ولتشجيع رجال

الفن ... ولا مراء في أنــه كــان للفقراء والمعوزين حظ معلوم في هذه الأموال ، فالرشيد كان يتصدق من صلب ماله _ كما أسلفنا _ في كل يوم . ويحيي يتصدق بعقل وحكمة ، ينشئ الكتاتيب لأولاد الفقراء واليتامى وينفق عليها من ماله . ويتعهدها ويوكل من يقوم على شئونها .. مبرة لهذا الوزير الحكيم يجب أن تقابل بالإعجاب والتقدير .

ويحمل _ كلما ركب صررا _ في كل صرة مائتا درهم ، يتصدق بها على كل من يعترض طرقه ويعترض لسؤاله من الفقراء والمعوزين .

و يعترضه أحدهم فيقول له :

يا سمي الحضور يحيي أتيت   لك من فضل ربنا جنتان
كل من مر في الطريق عليكم   فلــــه من نوالكم مئــتان
مائتا درهم لمثـــــــلي قليل   هي منــكم للقابس العجلان

ويكون هذا " الأحد " معدما وعلى نية الزواج ، فيعطيه يحيي للعروس وللمنزل وما يستقوي به على الأيام عشرين ألف درهم .

ويكثر في حديثهم أنهم كانوا يتفقدون صغار كتابهم ومن في دواوينهم ، ويبنون لهم البيوت ويهبون لهم الهبات ، وقد أكثرت كتب التاريخ والأدب من ذكر هذه الحكاية ، ونقلها _ غير واحد _ من كتاب الغرب وتكاد تكون لغرابتها من حديث الخيال ، لولا أنها مما يجيء مع قدرتهم وحديث كرمهم العجيب !.

لما نكب الرشيد البرامكة منع الناس من ذكرهم ورثائهم ، وظلوا على ذلك حتى أيام الأمين والمأمون . وسمع المأمون أن شيخا يأتي خراباتهم فيرثيهم ويبكي طويلا ثم ينصرف ، فبعث في طلبه . فلما جاؤا به انتهره وسأله عن أصله وبم استحق البرامكة عنده ذلك فقال : " أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، و للبرامكة عندي أياد ا شاء أمير المؤمنين ذكرتها . فقال له : هاتها . قال : نشأت في نعمة زالت عني حتى وصلت إلى بيع داري وأملقت إلى غاية بعدها ، فأشير علي بأن أقصد البرامكة فخرجت إلى بغداد ومعي ما ينيف على عشرين امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد في بغداد ، وخرجت وتركتهم جياعا ، فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي ، فجلست معهم ازور في نفسي ما أخاطبهم به فتحيد نفسي عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم فقاموا فقمت معهم فدخلوا دارا كبيرة فدخلت معهم ، فإذا بيحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، زكنا مائة رجل ورجلا ، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر . فتبخروا و اقبل يحيي على القاضي وقال :زوج ابن عمي هذا على بنيتي عائشة ، فخطب وعقد النكاح وأخذنا النثار من فتات المسك وبنادق العنبر ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخادم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضعوا بين يدي كل واحد واحدة . فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت إبطه ويخرج . فبقيت وحدي لا أجسر أن افعل ذلك فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم ، ففعلت وجعلت أمشي وألتفت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أفطن . فلما قاربت الستر رددت ، فيئست

من الصينية فجئته فأمرني بالجلوس وسألني عن حالي ، فحدثته بقصتي فبكى ثم قال : علي بموسى فجاءه فقال يا بني هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الأيام بصرفها فخذه إليك واخلطه بنفسك ، فأخذني وخلع على فكنت في ألذ عيش يومي وليلتي ، واقبل أولاده يتداولونني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أجسر بالسؤال عنهم ، فلما كان اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومي وليلتي ، فلما أصبحت جائني الخادم فقال : قم إلى عيالك وصبيانك فقلت : إنا لله ذهبت الصينية وما فيها فليت هذا كان من أول يوم ، وقمت والخادم يمشي بين يدي فأخرجني من الدار فازداد ما بي ، ثم أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي في الديباج ، وقد حمل إليهم مائة ألف درهم و عشرة آلاف دينار ، وسلم إلي الخادم صكا باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضيعتان لك . فأقمت مع البرامكة في أخفض عيشي كأني واحد منهم ، ثم قصدني " عمر بن مسعدة " في الضيعتين وألزمني من خراجهما مالا يفي به دخلهما ، وكلما لاحقني نائبة قصدت دورهم فبكيت . فاستدعى المأمون عمر بن مسعدة وأمره أن يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خراجه على ما كان في أيام البرامكة فبكى الشيخ بكاء شديدا فقال له المأمون: الم استأنف بك جميلا ؟ فقال بلى . ولكن هذا من بركة البرامكة _ أيضا _ فقال . امض فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الإيمان ".

أو بقي _بعد هذا _ في بيت المال أموال ؟؟ يا ويح بيت المال ماذا يلقى ؟ قول مأثور قديم : نعم بقي فيه بقيات كثيرة

تشاد بها القصور لا مثيل لها ، وتشرى بها الضياع وتعمر الدساكر وتشقق الأنهار لتجري في هذه الضياع ، فتخضر وتونع ، وتفيض ذهبا على هؤلاء الوزراء وعلى الخليفة وأبناء الخلفاء .

وفي أحاديث هذه الحياة التي جئنا بطرف منها يجب أن تحسب حساب المبالغة والرواية المدخولة . غير أنه ليست كل هذه الحياة حديث مبالغة و رواية مدخولة ، كما يخيل الينا اليوم ، وقد باعدت بيننا وبينها العصور وظروف الحياة واختلاف النظر ، حتى ليصعب علينا تصديقها .

إن الشك في هذه الحياة يعني الشك في كل هذا التاريخ وهذا الأدب الذي وصل الينا ، ويعني أيضا أن علينا أن نتخيل وضعا آخر لهذه المملكة المتسعة، وللون الحكم الذي يجري على شعوبها في هذه الفترة من الزمن .

فالمملكة الإسلامية في هذه الحقبة من التاريخ قد وصلت إلى غايتها من السعة واستقرت الأمور _ نوعا من الاستقرار _ فلا ثورات كبرى تستنزف مواردها ، فكثر الخراج وكله يرد إلى أمر الخليفة ينفق منه ما يشاء دون أن يتقيد بمسؤولية عن إنفاقه ... وإذا كان هذا هو الواقع. وهو كذلك ، فيجب أن ينفق هذا المال الذي يبلغ السبعين مليونا من الدنانير على مثل هذا البذخ والترف والسرف الذي جئنا بمثل منه ، ولو لم تصفه لنا كتب الأدب والتاريخ، لكنا أحرياء أن نتكهن عن مصير له كمثل مصيره الذي وصفته كتب الأدب والتاريخ .

الموظفون الذين تجري عليهم الأرزاق من بيت المال قلائل ، وهذا الخراج هو الوارد من أنحاء المملكة ، والذي يزيد عن حاجتها ويفضل من بعد عمرانها و أرزاق موظفيها وجندها فهو يكاد يكون حصة الخليفة .. بل هو حصته بعد أن ينفق منه مالا بدلا من إنفاقه على الموظفين والشرطة في الحاضرة ، وتجهيز الجيوش وقت الحاجة ، وهذه لا تحتاج إلا يسير منه . لقد كانت نفقة قصر المأمون ستة آلاف دينار في اليوم ، ولعل نفقة قصر الرشيد لا تنقص عن هذا ، وهو مبلغ كثير ، ولكنه لا يزيد في العام عن مليونين ودون الربع . فالذي يفضل من بعد هذا كثير ، فإلى أين إن لم يكن مهاوي البذخ وعيش الجواري وحياة الترف ، التي تصل حد السمج في كثير من الأحيان ؟فهذا العباس بن محمد يهدي الرشيد غالية (نوع من الطيب) يقول في صفتها : أما مسكها فمن سرر الكلاب التبتية العتيقة ، وأما عنبرها بحر عدن ، وإما بأنها فمن فلان المدني المعروف بجودة عمله ، وأما الذي ركبها ففلان بالبصرة ، عالم بتأليفها حاذق بتركيب أجزائها . ثم يقدمها في برنية فضة ، فلا يكون نصيبه إلا الضحك على خفة عقله إذ جاء يهدي التمر إلى هجر ، والمسك إلى دارين ، ويدهن بها المهرج _ أبـــو مريم المدني _ ارفاغة ومغابنه .

ويجب أن نسجل هنا أن الترف في عصر الرشيد ، وان أغرقت فيه هذه الطبقة فيه هذه الطبقة من الناس . لم يسلكوا به جانب الشذوذ والانحراف – بعد – فهو ترف أوجبه هذا الغنى الفاحش فبالغوا فيه ، ولم يكن من نتاج الخلق المريض – على أي حال – لعله كان الجرثومة التي قويت عليه بنية هذا العصر القريب من عصر

المنصور ، لكنها أنهكت وانحرفت بالخلق في عصر الأمين وماثلا عصر المأمون .

إن عوامل الغنى وامتزاج الحضارات هو الذي مهد إلى هذه الحياة . ومهد لها أيضا البرامكة بحضارة قومهم وارستقراطيتهم الفارسية .

وإيه قارئ بغداد ، أما سمعت في لياليها غير شدو المغنين ، وحديث المنعمين في القصور ، والمترفين في أحضان النعيم ؟ أما اشتملت القصيدة المرحة الطويلة على مقطع موجع وانه ملتاع ؟ بلى إن فيها لمقاطع موجعات ، لم يغرقها خضم المرح في القصور والبلاط :

هذه حياة ، والحياة الثانية ، المقاطع الموجعة في القصيدة تغاير هذا كل المغايرة على النقيض . اطو حدث الجواري والغناء والقصور السامقة والعيش الرخي الناعم في أجواء يفوح فيها مع ريح الغالية شذا الخمرة وأنفاس العذارى المعطرة .. ما أبعد النقلة ... هـــي حياة الذين يجمع منهم هذا الخراج وبلا شفقة .

وبعد أن نقول هنا كلمة لا بد منها ، وهي الأحوال المادية في هذا العصر خير منها في عصر أمية ، لأسباب منها خلوه من الثورات العنيفة الكبيرة التي كانت ترج المملكة فتذهل الزارع عن زرعه ، والتاجر عن تجارته ، فإذا الأمة شاكية السلاح منزوفة الموارد بمـــا تنفق على الجيوش المتأهبة على الدوام ،

يضاف إلى ذلك أن العرب في زمن الأمويين كانوا يرون أنفسهم جنسا متميزا عن الأجناس ، على غيرهم الكد ولهم التنعيم بنتاج هذا الكد ، وعلى الضد من ذلك عصر الرشيد وعصر العباسيين كله ، فما كانوا ينظرون إلى العرب أكثر من أنهم جزء من أجزاء هذه الرعية المختلفة الأجناس ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم .
نعود إلى القول انه شد ما استعمل العنف في استخراج المال وتحصيل الخراج من هذه الرعية ، التي كان يملق البعض منها في أحيان كثيرة .. نعم بعنف وبلا شفقة ..

وإذا ما صار العامل إلى البيادر لتخمين الغلال ، فمن ورائه جيش من الأهل والأقرباء يذبحون الدجاج والحمام ، وينكلون بالزارع ما شاء لهم عسفهم وطغيانهم ..

" ولا يضر بن رجل في دراهم خراج ، ولا يقام على رجله ، فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الإسلام " وأنه بلغني " أنه قد يكون في حاشية العامل والو إلى جماعة ، منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ، ليسوا بأبراء ولا صالحين ، يستعين بهم ويوجههم بأعماله يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ، ولا ينصفون من يعاملونه ، وإنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج أو من أموال الرعية ، ثم يأخذون ذلك – فيما بلغني – بالعسف والظلم والتعدي ، ثم لا يزال الوالي ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها بما لا يقرون عليه ، ولا يجب عليهم حتى يكلفوا بذلك فيجحف بهم ، ثم يبعث رجلا من هؤلاء

الذين وصفت لك أنه معه إلى رجل ممن عليه خراج فيقول له قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا ، حتى لقد بلغني أنه ربما وظف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج ، فإذا أتاه ذلك الموجه إليه قال له أعطني جعلني الذي جعل لي الوالي ، فان جعلني كذ وكذا ، فان لم يعطه ضربه وعسفه ، وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين ، حتى يأخذ منهم ظلما وعدوانا ، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ، ونقص للفيء على ما فيه من الإثم . فمره يحسم هذا وما أشبهه ، وترك التعرض لمثله حتى لا يكون مع الوالي من هؤلاء الذين سميت أحد ، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ولا يوضع إلا في حقه " .

وهذا قليل من كثير مما كان يقع في هذا العصر . وهذا الذي ذكرنا هو من شهادة قاض نزيه ، لا ترتفع الشبهة إلى نزاهته ولا يرقى الغرض إلى الطعن في شهادته . هو قول وشهادة القاضي أبي يوسف في كتابه " الخراج " وهو _ بعد _ من أقوال معقودة في فصل _ في خراج السواد _ هذا الذي يحيط بدار الملك وتصل إليه عين الخليفة وعيون وزرائه ، ولا جرم يبلغ العسف أكثر من منه في الأيالات النائية والأمصار البعيدة ، حيث لا تمتد إليها عينه ولا أعينهم ، وحيث يكون الوالي وعامل الخراج حاكما مطلقا بأمره يصنع ما يشاء .

يشتد عيسى بن ماهان في خراسان ويثقل على الناس ، وتحمل أمواله على ألف وخمسمائة جمل ،ويكون من وراء عسفه ثورة جامحة يكاد يستنفد إخمادها ما في بيت المال من مال ، ويرد في أسطر التاريخ وبين طيات حوادثه مثل هذه الجملة : " وأخذ الرشيد الناس في ناحية كذا بالشدة في تحصيل البقايا " .

وأخذ يتفشى في هذا العصر _ التضمين _ الذي أرهق الرعية شر وبلاء ليس بعده ، فقد كان يحمل إلى افريقية مائة ألف دينار من خراج مصر في كل عام ، لان خراج افريقية لا يفي بحاجاتها ، فضمنها الرشيد إلى ابراهيم بن الأغلب ، على أن يتنازل عن هذه المعونة ويزيد فيحمل للرشيد أربعين ألف دينار في كل عام .

وهذا المشهد الذي يزيح عنه الستار _ أبو العتاهية _ لا يعدم أشباها في تاريخ العصر الذي كاد يطغى حديث الترف والسعادة فيه على كل حديث :

من مبـــــــلغ الاما	م نصائحا متواليـــة
أني أرى الأسعـــــار	أسعار الرعية غاليـــة
وارى المكاسب نزرة	وارى الضرورة فاشية
وارى غموم الدهر را	ئحة تمر وغاديــــة
وارى اليتامـــى والارا	مل في البيوت الخاليـــة
من بين راج لم يـــزل	يسمو إليك وراجيـــــة
يبكون مجـــهدة بأصوا	ت ضعاف عاليــــــة
يرجون رفدك كي يروا	مما لقوة العافيـــــــــة
من يرتجي للناس غير	ك للعيون الباكيـــــــــة
من البـــــطون الجائعا	ت وللجسوم العاريـــــة
إن الاصــــول الطيبا	ت لها فروع زاكيـــــــة
ألقيـــــــــت أخبارا إليـــــــــك مــــــــن الرعيـــــة شافيــــة	

أي هذه أخبار من الرعية وشافية ، ولكن ما الفائدة ،

إن الأمر لا يصلح بالشعر . وقد كان القاضي أبو يوسف عمليا، فذكر طريقين للإصلاح واجتثاث هذا الظلم ! أولهما أن يعهد بتحصيل الخراج إلى أناس عرفوا بالصلاح وشهد لهم بالنزاهة والاستقامة ، وثانيهما أن يعيد الخليفة أحياء مجلس المظالم بحضوره فيه بالذات في الشهر أو الشهرين ، وان لم يكن هذا بالمستطاع ففي العام مرة ، وهي كافية برأيه لان تعيد الحق إلى نصابه وتردع الظالم عن ظلمه ، والطريقتان مقبولتان بالقياس إلى عصره ، ولكنهما غير كافيتين بالقياس إلى عصره _ أيضا _ لإزالة هذه الحل النابية المؤلمة ، وهي حال الخراج وطرق استغلاله التي تمر بالمؤرخ في كافة أدرار التاريخ الإسلامي ، حاشا دور الخلفاء الراشدين ، فلم يعد فالمملكة قد اتسعت والمصالح قد تعقدت والمشكلة كامنة في هؤلاء الرعايا المختلفي الأجناس والذين يتلقون على شيء واحد هو الجهل . قلائل جدا هم الذين يعرفون السبيل إلى مجلس المظالم . ومع أن جلوس الخليفة أجدر بردع الظلم وكسر شرته ، ولكن الجالسين فيه هم البرامكة جديرون أن يزيلوه لو دروا به ووصل إليهم كله ، ولكنه لن يصل إليهم كله .

لم يعرف القاضي أبو يوسف ، ولم يعرف سواه ، الأسباب التي تزيل هذا الظلم من أساسه ، ذلك لان العرب لم يعرفوا نظاما للحكم غير هذا النظام الذي هم فيه ، فغايتهم في الإصلاح يوم يتأزم الوضع خرفا ، أن يبحثوا عن إمام بدل إمام ، وليس عن نظام بدل نظام .

ستبقى الحال كما هي ، وستبقى نصائح أبي يوسف أقوالا

في كتاب الخراج لا تتجسد واقعا ، وسيمر هــذا العصر ويتلوه عصر المأمون ، فيكثر التضمين ، ثم يجيء عصر المعتصم ، وتأخذ الأمور تسوء وتسوء حتى يقضي سوؤها على دولة العرب والإسلام .
مر الرشيد بمكة ، فقال الفضل بن عياض : الناس يكرهون هذا وما على الأرض أعز علي منه لو أنه .. حتى يضع رأسه لرأى الناس امورا عظاما .. ووضع رأسه ورأى الناس امورا عظاما .. واشتد هذا الصوت الذي بدأ به الوليد بن الطريف الشاري في زمن الرشيد :

أنا الوليد بن الطريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري
جوركم أخرجني من داري

وسيخرج الجو غيره .. ثورات كبيرة متلاحقة : بابك الخرمي وصاحب الزنج ، والقرامطة . ويختلط بهذه الثورات دعوة الدين فتهد المملكة وتستنزف مع مواردها دم أبنائها ... وتغرب الشمس ويدخل العالم الإسلامي في ليل بهيم مطبق ، كأنما أغرقت أذياله من أسوداده في مثل المداد الأسود .. قرون لا يلتمع في جنباتهم نجم .

أو يبعد كثيرا عن الصواب من يفترض أن عقبى هذا الأمر ، ومن أسباب هذا التدهور ، السرف والترف وعيش الجواري الذي بدأ يغرق فيه بلاط الرشيد ؟ لا !! وقديما قال ابن المقفع : ما رأيت سرفا إلا والى جانبه حق مضاع ..

تلك حياة السرف . وهذه هي حياة الحقوق المضاعة ..

في الذروة

ثوب بزيقين

في الذروة من الجاه والسلطان

وفي الذروة من الدالة والمنزلة عند الرشيد .

وفي الذروة من حياة الترف والنعيم . هذه المنزلة التي بلغها جعفر _ بصورة خاصة _ فقد دخل في منادمة الرشيد . وقد كان أبوه يحيى كارها لهذا ، فقد رجا الرشيد كما تقول الرواية التاريخية _ غير مرة _ أن يعفي جعفرا من هذه المنادمة .
ويقول له في معرض هذا الرجاء : دعه يا أمير المؤمنين يقتصر على خدمتك . فيجيبه الرشيد : لا ! وليس هذا هو السبب ولكنك تنفس عليه هذه المكانة ، وتريدها لابنك الفضل الذي تحبه وتؤثره ويروون أن يحيى كتب لابنه جعفر بعد أن أعياه نصحه " وإنما تركتك ليعثر بك الزمان وان كنت أخشى أن تكون التي لا شوى بعدها " . وان صحت هذه الرواية عن يحيى ، فكأنما الشيخ كان يقرأ في الغيب . فعثر الابن وكانت التي ليس بعدها .. حقا انها مخوفة هذه المنادمة .

لم تصف كتب التاريخ والأدب طبيعة هذه المنادمة ومجالسها . فشأننا أن نضم كلمة إلى كلمة ونتقرى ما وراء السطور ..

من قال لك أن أحدا رأى الرشيد وهو يشرب ، فلا تصدق . هكذا يقول مؤرخون كثيرون . وليس معنى هذا نفي الشرب عن الرشيد ، وإنما معناه نفي رؤية أحد له وهو يشرب . لان هؤلاء المؤرخون يعترفون أن الرشيد كان يشرب النبيذ ، وهو شراب أفتى بحلة كثير من فقهاء العراق . وأزيد أيضا أن هذا النفي ليس للإطلاق وإنما هو نفي يقصد منه أن الرشيد لم يكن يتبذل بشربها ، أو يشربها حتى إمام كثير من الأصحاب والأصدقاء . فكانت توضع بين الرشيد وبين هذه الطبقة أو الطبقات من الفنانين الموسيقيين ستارة يجلس وراءها هو وخاصة جواريه . هكذا يقول التاريخ . فهذا هو مجلس المنادمة الذي كان يحضره جعفر ويشتد أبوه في نهيه عن حضوره . ولا مراء في أن الجواري كن يحضرن هذا المجلس ، فقد غناه ابن جامع في هذه الأبيات :

ولقد قالـــــت لأتراب لها ... كالمها يلعبن في حجرتها
خذن عني الظل لا يتبعني ... ومضـــت تعدو إلى قبتها

فأجازه .. ثم غناه محمد بن حمزة :

يمشـــون فيها بكل سابغة ... أحكم فيها القـــتير والحلق
يعرف انصافهم إذا شهدوا ... وجدهم حين تشخص الحدق

فأجازه .. ويعثر اللسان بعلوية فيغنيه :

يجحدن ديني بالنهار واقتــضى ... ديـــني إذا وقـــد النعاس الرقدا
وأرى الغواني لا يواصلن أمرا ... فقد السباب وقــد يصلن الأمردا

فغضب الرشيد وقال له : أتغني بمدح المرد وذم الشيب _ وقد شبت_ وستارتي منصوبة كأنك تعرض بي ؟ وأمر خادمه مسرورا أن يخرجه من المجلس ، فلم ينتفع المغنون بالرشيد بقية يومه .

وإبراهيم الموصلي ، فنان هذا العصر ، كان يجلس بعض المرات مع الرشيد ينادمه وحده أو معه جعفر ،وكان يرى هؤلاء الجواري، فهو يقول : اصطبحت مع الرشيد وعنده جارية كأنها خوط بان أو جدل عنان ، حلوة المنظر دمثة الشمائل وفي يدها عود فغنت صوتين ولما طلب مني الغناء غنيته في هذه الأبيات :

تشرب قلبي حبها ومشى بها	تمشي حميا الكأس في جسم شارب
ودب هواها في عظامي وشفا	كما دب في الملسوع سب العقارب

ففطن الرشيد وأمرني بالانصراف وطرحني شهرا ثم دس لي خادما ومعه رقعة زعم أنها من الجارية فضربت الخادم ضربا مبرحا وذهبت وأعلمت الرشيد بالأمر فعفا عني ، وليس يمنع حدوث هذا فالجواري كن سافرات غير متحجبات غير متحجبات يهبهن الخليفة إذا شاء _ وإذا شاء صاحب من خاصته وعرف كيف يحتال على الطلب .

وفي هذه المجالس تعزف الموسيقى ، بما داخلها من ألحان مطربة مستجدة ، وترتفع أصوات المغنين بهذه الأشعار والأصوات المطربة .. فيتمشى في نفوس من هم وراء الستارة الطرب .ز وكان الرشيد وقورا ، إذا كان في المجلس من تقع

عليه عينه ، فلا يأتي بأكثر من حركة بين الحركتين ، ولكن مع جعفر صديقه ومع الخاصة من جواريه حيث لا عين ترى ولا إذن تسمع _ غير هذه _ فقد كان يستخفه الطرب _ بعض الشيء _ والكريم طروب . وقد ذكروا أنه في مثل هذه المجالس كان يطرح عليه وعلى جعفر ثوبا واحدا بزيقين .. ولم يقولوا لنا ما دلالة هذا ، لعله رمز إلى إنهما جسدا واحدا فيه روحان .

أوفي هذا من ضرر على سمعة الرشيد ؟؟ لا .. فتلك مجالس خاصة _ ليس فيهما إثم _يرفه فيها عن نفسه ، وليس فيها من ضرر ، وهو يقول صادقا لناسك اعترضه بالنصح وأغلظ : . . . يا هذا إني أقيم حدود الله واقف عند نواهيه . وهي بعد تنسجم مع طبيعة الرشيد التي تتحكم بها العاطفة ، لا تنسجم معها فحسب ، وهو يقيم حدود الله ويقف عند نواهيه ، وإنما هو يزيد فيحج عاما بعد عام ويكثر من نافلة الصلاة . .

ويعتمد ابن خلدون في نفي ما ظنه _ شينا _ للرشيد _ على قرب عهده من عهد جده المنصور الذي أمر مالكا بتأليف الموطأ له ، وسها عن بال شيخ المؤرخين أن يذكر حجة اقوي ، وهي إن الرشيد نفسه أمر ابا يوسف بتأليف ديوان الخراج . وأين كتاب الموطأ من كتاب الخراج ؟ ... إن حجة ابن خلدون لا تأخذ قوتها من الطبيعة الإنسانية ، والحجة ل تأخذ متانتها من تلك الطبيعة غير جديرة بالالتفات .

وتحت هزة الطرب ، وهذا الخدر من النبيذ يمشي في العروق ، تخف رقابة العقل وسيطرته ، فيقول الكلمة التي يأسف لها

كثيرا ويأتي بالحركة والإشارة التي يطول تندمه عليها ، ولهذا أشفق الوالد على ولده ، وسعى بحنان الأب ليجنبه حضور هذه المجالس ، وهيهات .. لقد ارادة الخليفة على ذلك وأراده شبابه وتوقد عاطفته ، فسيق إلى هذه المجالس يصل أمره بالرشيد على نحو لم يتح لغيره من آل بيته ومن آل بيت الرشيد ، ومن يعلم ، فلعل أمره يتباعد بهذه المجالس _ أيضا _ عن الرشيد على نحو لم يقدر لغيره .

وكان جعفر في هذه المجالس التي يدنو فيها من الخليفة دنوا لا مثيل له قادرا أن يوجه سياسته ، ويؤثر على أفكاره و عواطفه وما يتفق ومصالح بيته ، فيحفظ التوازن أن يختل بهذا الدس والكيد الذي تفننت فيه هذه الحاشية ، التي ألهبها الحسد وكواها الغيظ ، أن تستبد هذه العائلة الفارسية بالرشيد وملك الرشيد .. فهو قادر أن يمسح بمجلس المنادمة وما يدور به على ما خلف الواشون بنفسه من أثر .. وهو لهذا كان شيئا مفدا لعائلته ، كما يقول الشيخ " فيلبي " .

إن الشيء الذي لا تسمح به نفس الرشيد ، والذي لا يستطيع البرامكة أن ينالوه منه ، كان جديرا أن يذلل وأن يجد وجوه الرضى ، إذا ما لانت النفوس ومرحت تحت وقع الأنغام ، وفي المجلس اللهو والشراب ، لاسيما إذا ما أخذ الحديث فتى لبق عالم بأفانينه متمكن من موارده ومصادره ، كجعفر . وقبل أن تسترسل ! ألا يحق لنا أن نتسائل : أو هناك ما يمنع أيضا إذا ما ركد العقل تحت تأثير المرح والشراب وسهلت الإرادة ، أن

تقع منه نظرة جارحة على جارية أو تبدو من كلمة من معانيها المغازلة ؟ .

لقد وقع مثل هذا، وندت الكلمات والنظرات من النديم تارة ومن الجواري تارة في مجالس خلفاء غير الرشيد .

كان من جملة المغنين الذين يحضرهم المأمون فتى اسمه سوسن ، رأته جارية من جواريه فأحبته ، فكان إذا حضر غنت :

ما مررت بالسوسن الغض إلا كان دمعي لمقلتي نديما
حبـــذا أنت والمسمى به أنت وان كنت منه أزكى شميمـــــا

وإذا لم يحضر لم تغن بهذا الصوت ، ففطن إلى ذلك المأمون وكاد يقتلها ، ولكنها اعترفت أنه الهوى البريء ، فتداركها حلمه الذي خص به ، فزوجها منه .

وقد يقع في هذه المجالس نظرات غير نظرات الحب ، وكلمات غير كلمات المغازلة . كان البعض من الندماء يعربد ، إذا ما جار عليه الشراب فأفقده الصواب . وقع مثل هذا للشاعر الخليع مع واحد من أولاد الرشيد ، ولما صحا الشاعر أكثر من الاعتذار .

لم يذكروا شيئا من هذا عن جعفر ، وما كان لهم أن يذكرونه بحال من الأحوال ، ولكنه مما لا يصعب تصوره و إمكان وقوعه ،كما أنهم لم يذكروا أن جعفرا انقطع عن منادمة الرشيد أو اطرحه

لسبب من الأسباب ، هل احتمل منه موقف أو مواقف ؟ يجوز هذا ويجوز أن شيئا من هذه الأشياء التي نفرضها لم يقع ، وكلا الفرضين مقبول : الأول لمنزلة جعفر ومكانته في نفس الرشيد ، والثاني لفطانة جعفر وذكائه .

إننا نجهل الكثير من أمر هذه المنادمة ، لان حديثها يجري في طي الخلفاء، حتى أن الوالد يحيى يجهله ولا يعلم كنه ما يجري فيه ، فيقول لابنه : حدثني عن بعض خلواتك بالرشيد ، فيقول : يا أبت أخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حجرة يخترقها حتى انتهى إلى حجرة مغلقة ففتحت له فرجع من كان معنا من الخدم ثم صرنا إلى حجرة ثانية مغلقة ففتحها بيده ودخلت وإياه وأغلقنا من داخل ثم صرنا إلى رواق وفي صدره مجلس مغلق فقعدنا على بابه ونقر بيده نقرات فسمعنا حسا ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود ثم نقر ثالثة فغنت جارية ما ظننت أن الله خلق أحسن منها صوتا في الغناء وجودته ثم غنت :

طال تكذيبي وتصديقـــــي	لم أجد عهدا لمخلوق
أن أناسا في الهوى غدروا	حسنوا نقض المواثيق
لا تراني بعـــدهم أبــــدا	أشتكي عشقا لمعشـــوق

فرقص الرشيد ورقصت ثم قال دعنا نذهب قبل أن يظهر منا أكثر من ذلك.. ثم قال وهو قابض على يدي : ستسأل من هذه ؟ هي علية أختي ، وان لفظت باسمها فسأقتلك فقال له أبوه : قد لفظت باسمها وسيقتلك فاصنع ما أنت صانع " . هذا طرف من حديث هذه الخلوات وأخشى القول إن المؤرخين لم يحتفظوا

لنا بغيره ، لان الحرص على كتمانه وإبقائه طي الخفاء جعل الوالد يهتف بولده : إذن سيقتلك لأنك لفظت باسم من لا يحب أن تبوح باسمها . وذكرت الحديث حتى إلي . وإذا كان حديث هذه الخلوات لا يلقى البوح به للوالد الشفيق ، إلا القتل ، فيا شد ما يتعب المؤرخون بالتنقيب و البحث ، ثم هم لا يجدون بعد طول الكد والبحث إلا الخيبة والحسرة وحكايات غريبة منتزعة من ألف ليلة وليلة .

ومما يتصل بحديث هذه الذروة التي وصل إليها جعفر عند الرشيد ، انه لم يظهر لغيره من وزراء رسم على النقود المتداولة فقد وجد في خزائنه بعد مقتله دنانير مكتوب عليها :

وأصفر من ضرب دار الملو	ك يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائـــــــــة واحـــدا	متى يلقـــه معســـر يوسر

أكان ذلك لأنه تولى الإشراف على دور "العملة" .... كثيرون هم الذين تولوا هذه الوظيفة ولم يظهر لهم مثل ذلك ، ولم يحلموا بمثل هذا الشرف وهذه الحظوة .

وقد وجد على النقود التي عثر عليها _ مؤخرا _ في بغداد وكرمان اسمه منقوشا ، إلى جانب اسم الرشيد ... وهو شرف لم يعط لغيره .

* * *

القسم الثاني

النكـــبة وأسبابهـــا

ليال سود

لا نستطيع أن نعين التاريخ الذي بدأ فيه قلب الرشيد يتحول عن البرامكة . هل استوقفك هذا المعنى الذي يصف فيه ابن الرومي مصير القضاء في ظلم الغيب ، ودبيب الملال في قلوب المحبين ؟؟ .

أو مسير القضاء في ظلم الغيـ ب إلى من يريده بالتواء
أو دبيب الملال في مستهاميـ ن إلى غاية من البغضاء

هذا هو الذي أخذ يستشعره الرشيد حيالهم .. دبيب علة لم يتبينه هو بادئ ذي بدء ، ثم أخذ يظهر ويبين ، ويتبينه من معه .. ثم إلى غاية من البغضاء ..

يذكر الجاحظ عمن رووا عن مسرور الكبير أنه قال ، واقسم على ذلك ، انه سمع الرشيد _ وهو لا يراه _ متعلقا بأستار الكعبة يستخير الله في قتل جعفر وكان ذلك قبل قتله بخمس أو ست سنوات ومن الناس من يرد عزم الرشيد على القتل إلى أبعد من هذا التاريخ ..

وقد جاءت الناس هذه الظنون التي ذكرها التاريخ ، من اعتراض حوادث كبيرة في مدة حكمهم ، فيها مساس بمجدهم و أن الرشيد أخذ يتحرف عنهم . فقد استعفى يحيى الرشيد من الوزارة قبل النكبة بست سنين فأعفاه ، وبقي في المدينة ليجاور

قبر الرسول "ص" . وفي عام ١٨٠ هـ في اوائله أو آخره ، ولى جعفر على خراسان _ بعد أن أخمد الفتنة في الشام _ وعزله قبل أن يشخص إليها وبعد الولاية بعشرين يوما ، وقد ارتاع لهذا العزل المفاجئ . فليس هنا ما يمنع الناس ويمنع أخصام البرامكة أن يتصوروا أن نذر الشر بدأت تطل ، وأن الرشيد سيوقع بهم عن قريب .. وكن الأمور تعود إلى مجاريها والقلوب إلى تصافيها ، فيلحق يحيى بالرشيد بالعمر ويتسلم مقاليد الأمر ثانية ، ويعود جعفر ثانية ليتولى الأمر على خراسان ، وما يتصل بها إلى همدان ، حينما بويع للمأمون في عام ١٨٢ هـ ، ويضمه أبوه إلى جعفر ، فيرى الناس والخصوم فأل آرائهم و خيبة رجائهم ، ولكن لما جاءت النكبة وحار الناس في معرفة الأسباب المباشرة ، عادوا ليروا في ظنونهم القديمة صلة وثيقة بهذه النكبة .

كان الناس يصدقون ويكذبون ، ولا يستطيعون أن يتبينوا كنة هذه العاطفة المتقلبة .

البرامكة أنفسهم كانوا يكذبون ظنونهم ، ولا يصدقون تصوراتهم ، ويظنون أن الأمر قد لا يزيد على طائفة من وهم : يقول جعفر لإبراهيم المهدي _ وكان صديقهم الصدوق _ وهم الذين قربوه من الرشيد : إني بدأت أشك في هذا الرجل _ يعني الرشيد _ وعله لخاطر سبق نفسي فارقبه لي في سمرتا الليلة .. ولما انفض سامرهم خرج ابراهيم فاختبأ في شجر _على الطريق_ فلما انصرف جعفر وقف على الشجر ثم قال له : اخرج يا حبيبي ، فلما خرج قال : ما حديثك ؟ قال: أو تعلمني أولا كيف اهتديت إلى موضعي ؟ فقال له : علمت انك لن تذهب حتى تراني ،

ولا يليق بمثلك الوقوف على قارعة الطريق ، فهجس في نفسي انك مختبئ في الشجر. والآن أي شيء عندك ؟ قال : رأيته يجد حين تهزل ويهزل حين تجد ! فقال : هو كذلك عندي .. لقد فصلت هذه العبارة المقتضبة حديثا طويلا لنوازع الرشيد التي بدأت تستجد ، وبدأ البرامكة يحيون بها ولا يقدرون مداها وعقباها .

ثم تفصح هذه النوازع الجديدة عن نفسها أكثر فأكثر . فان طبيب الخليفة "بختيشوع" يذكر أنه كان جالسا مع الرشيد في مقصوراته التي تطل على الشماسية ، حيث قصور البرامكة ، ومن وراء الستارة أم جعفر فيرى اعتراك الخيول وازدحام الناس على أبوابهم ، فيقول : ما ترك لنا البرامكة من الأمر شيئا ، فيقول له أنهم عبيدك يا أمير المؤمنين . فيتأوه الرشيد ويقول : ولكن انظر إلى دوابهم فان ظهورها إلى قصري وفي هذا استخفاف بي ، ثم يأخذ بالطعن فيهم والتشنيع عليهم ، وتشترك معه أم جعفر بذلك ، وينقل الطبيب حديث تلك الجلسة إلى يحيى ، وكان من رجاله كما هو من رجال الخليفة ، فيقول له : أتذكر أن حدثتني قبل عام مثل هذا الحديث ، وان الرشيد إذ رأى ازدحام الناس على أبوابنا حمد لنا أن قمنا بالأمر وأتعبنا أنفسنا في سبيل راحته وتوفير هنائه .. نحن لم نتغير .. الموقف هو هو ، بيد أن الخليفة هو الذي أخذ يتغير ..

نعم هو قلب الخليفة الرشيد الذي بدأ يتغير ، وأصبح وهو الذي تتملكه العاطفة غير قادر على مداراة هذا التغير ، فهو يجاهد كتمانه ما استطاع وما قدر على هذه العاطفة ، ولكنه

يفضي به إلى غير واحد من خاصته ، وان كان يشك في أن هذا الذي يفضي إليه بحديثه قادر على حفظه وكتمانه .

يسأل إسماعيل بن يحيى الهاشمي ، ومن المؤرخين من يروي انه اسحق بن علي العباسي ، لمن هذه الضياع ؟ وقد راقته بخضرتها فيقول هي للبرامكة _لجعفر _فيقول أغنيناهم وأفقرنا أنفسنا . أرأيت على طول هذه الطريق المتصلة ببغداد ضيعة لأحد من أبنائي .. وما ظنك بالضياع التي ليست على هذه الطريق والتي هي في أنحاء بعيدة وأماكن نازحة . فيقول له : هم عبيدك وخدمك . فيلتفت إليه ويقول : ألي تقول هذا ؟ و والله ما عد البرامكة بني العباس إلا عبيدهم ، وأنهم ما أكلوا الخبز إلا بهم ، واني لأعلم انك ستذهب إليهم وتحدثهم بحديثي هذا لتتخذ لك يدا عنهم فحذار أن يقع هذا ...
ثم يذكر اسحق هذا أن الرشيد بعد حين أهدى لجعفر خادما لينقل إليه إسراره ويحصي عليه أنفاسه ، فجاءه اسحق والخادم على رأسه ، وقال له في حديث طويل إني أرى لتزداد حظوة عند أمير المؤمنين إن لو صيرت بعض ضياعك إلى أولاده ، فالتفت إليه مغضبا والغلام واقف على رأسه وقال : أداخل ابن عمك طمع بني هاشم أما كفاه أني تركته لا يهتم بأمر شيء ؟ .

وقد يكون أمر هذا الحديث الذي تردد ذكره كثيرا في التاريخ مختلفا ، فما كان لجعفر في نباهته وفي أخريات أيامه أن يصرح بكل هذا ، وقد أحس بنفس الرشيد أخذت تتغير ويداخلها شيء من الريبة ، ولكن الذي لا أشك فيه شيئان الأول أنه كان للرشيد

في بيوت البرامكة من ينقل إليه أحاديثهم ، وكان ذلك في أخريات أيامهم ، والثاني أن بعض أصدقاء البرامكة الخلص قد عملوا مخلصين على إزالة هذا الذي أخذ أمره يتسع بينهم وبين الرشيد ، إذ ظنوه حديث طمع في أموالهم وضياعهم فحسب ، فنصحوهم أن يهدوه شيئا مـــن هذه الضياع ويتركوها لأبنائه . نصحوا يحيى بمثل ذلك فكان جوابه قريبا من روحه ، واتجاهات عقله : لا أكون سببا في زوال النعمة عن معشر كنت سببا إليهم ، ونصحوا لجعفر أن يهدي قصر "الجعفري " الذي بناه في أواخر أيامه إلى الأمير المأمون ، ولكن هذه الرواية ذاتها لا تنكر إن جعفر سكنه طوال أيام حياته ..

وسيان أأهداه القصر أم لم يهده فلا شك انه يجيء مع هذين الشيئين إن إجابة جعفر في كثير من المرات كانت قاسية ، وأن الموكلين بنقل أحاديثه كثيرا ما يقعون على أحاديث له تثير غضب الخليفة ، وتستطيع النفس المنحرفة عنه والتي تظن به الظن أن تجد فيها تفاسير لشكوك كثيرة ومختلفة . من ذلك أنهم تذاكروا في مجلسه _مرة _ حديث أبي مسلم الخراساني ، فتفقه جعفر بقوله انه أم يعمل عملا ، لقد قتل الألوف المؤلفة لينقل الملك من بيت إلى بيت ، والرجل الرجل من ينقله دون اراقة دم . ليس في هذه الكلمة شيء ، وفيها كل شيء . ليس فيها شيء أكثر من غلظة أبي مسلم وتنقص المجد الملوث بالدم ، هذا إذا أخذت بروح طيبة ، وهي بعد تجيء مع نظرة البرامكة إلى الأمجاد ، وأنهم يريدونها _ ما وسعهم _ خالصة من حديث الدم والقتل ، وفيها كل شيء إذا اختلطت فيها إظلال الشك والريبة ...

انه يعني قدرته على نقل الملك من بيت إلى بيت ، وفي هذا كل الخطر .
ومما يؤيد حديث عيون الرشيد على البرامكة ، أن الرشيد كان نهى الموصلي أن يغني أحدا غيره وغير جعفر ، فسمعه الفضل _في بيت أخيه _ فجعل له مالا كثيرا إن صار إلى بيته ليغنيه ليلته _ وكان الرشيد مريضا بالرقة _ فأبى الموصلي وقال : إن في هذا خروجا على أمر أمير المؤمنين ولا آمنه .. ولما نكب الرشيد البرامكة ، عاتب الموصلي وقال له : تركتني بالرقة مريضا وصرت إلى بيت الفضل تغنيه ! فأقسم على ذلك ، ولما بحث الرشيد عن الحكاية عرفها على حقيقتها .

في هذا الدلالة الكافية والحجة الوافية على ما ذكره الاتليدي صراحة ، وأشار إليه غيره من المؤرخين ، من انه كان له عليهم عيون .

ويشيع حديث ازورار الرشيد عنهم ، وأنه سيوقع بهم ، وتخرج هذه الإشاعات عن حدودها الضيقة _ قصور الطبقة الارستقراطية _ ويتحدث بها من في بغداد ، ويذكرون انه سيوقع بهم ، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك فيعينون من يخلفهم في دست الوزارة .

سأل الرشيد اسحق المغني : بم يتحدث الناس اليوم في الفضل بن الربيع الوزارة فغضب الرشيد وصاح به : وما أنت بغداد ؟ فيقول له : أنهم يتحدثون انك ستوقع بالبرامكة وتولي وذاك ويحك . ثم يدعوه للغناء _ بعد أيام_ فكان أول غناه:

إذا ما نحن صدقناك	قصر عندك الصدق
طلبنا النفع بالبـــــا	طل إذ لم ينفع الحق
فلو قــــــدم حبا في	هواه الصبر والرفق
لقد مت على الناس	ولكن الهـــوى رزق

فضحك وقال : يا اسحق قد صرت حقودا .

ويستبين الأمر أكثر ، ويكاد يسفر الشر بما لا يدع مجالا للشك في معرفة ما الأمور صائرة إليه .. يدخل الليل في ظلمته اشد حلكة وأغذف سدفة .
يدخل يحيى على الرشيد بغير استئذان _ كما هي العادة ، وكما دخل ألوف المرات _ فيلتفت الرشيد إلى طبيبه ويقول له : أيدخل عليك احد بدون إذنك .. فيقول لا ، ولا يطمع بهذا احد . فيقول _ ما بالنا يدخل علينا بدون إذننا ؟ .. فيقول يحيى _ ليس خروجا عما يحب أمير المؤمنين ، ولم تكن الأولى ، ولو علمت إن ذلك يثقل عليك لصرت في الطبقة الثانية أو الثالثة .. فلا يرفع الرشيد إليه وجهه حياء ، ويقول لا ، ولكن الناس يقولون .. الناس يقولون ، والقلب الذي انحرف عن هواه ومحبته اخذ يصغي لما يقول الناس . لقد قالوا في غضون هذه المدة المديدة أشتات الأقاويل ، واختلقوا أفانين الحكايات ، وكان حظ من يجسر فيسمعك صوته الرمي في أطباق السجون ... الشيخ يحيى يظن الامر يجدي معه المنطق والعقل ، فهو يفنده بالحجة : لقد كنت تأذن لي فأدخل عليك في مهادك _ يا أمير المؤمنين _ فما عدا مما بدا ؟؟ لقد عدت وبدت أشياء كثيرة .

وتزاد الجفوة درجات ، فيأمر الخليفة مسرورا أن يأمر خدم القصر بعدم القيام ليحيى وأن لا ينهضوا لخدمته .. فربما طلب شربة ماء فيتعللون عليه ، ولا يأتونه بها إلا بعد أن يتكرر الطلب .

ويحزم الرشيد أمره، فيقرب الذين عرف فيهم الميل عن البرامكة والطعن في سياستهم . ففي أيام زهو البرامكة رفع محمد بن الليث له رسالة يعظه ويذكره أن يحيى بن خالد لا يغني عنه_ غدا _ من الله شيئا ويقول : ((وقد جعلته فيما بينك وبين الله فكيف إذا أنت وقفت بين يديه فسألك عما عمات في عباده ، اتراك تحتج بحجة ترضى بها ..)) مع كلام فيه توبيخ وتقريع ووضعه الرشيد لهذه الرسالة وبرأي يحيى في المطبق ، غير أنها لآن وقد أخذ يزور جانبه عن يحيى وآله يذكره ويخرجه من السجن ، ويقول هل تحبني ؟ فيقول لا . سجنتني بغير ذنب وحلت بيني وبين عيالي بلا ذنب سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله .. ثم ينعم عليه الرشيد ويجزل له في الإنعام ، ويعيد عليه السؤال فيقول _ أما الآن فنعم، أنعمت علي وأحسنت إلي.. فيقول له انتقم الله ممن ظلمك .

قد يصح هذا كله أو بعضه ، وعلى أشكال قد تختلف عما رواه التاريخ ، ولكن الذي يستحيل فيه أن يكون كله من نسج الخيال ، وأن لا ظل فيه للصدق والواقع . وما فيه _ بعد _ حكايات مقتصدة ، لا اسراف فيها في إظهار جفاء الرشيد واسترابته فيهم واسترابتهم فيه ، ومن الخيال الظن أن جاءت النكبة دون سابق نذر وارهاصات .. فجاءه ودون جفوة . . .

غير أن هذه النذر وهذه الإرهاصات كانت تجيء متقطعة ، كالأيام الشاتية وأسماء المتلبدة بالغيوم ، تعبها أيام صحو جميلة وسماء زرقاء لا غيم فيها وهذا هو الذي جعل البرامكة يستنيمون إليها ، ولا يظنون فيها أكثر من حديث ملال وعمل وشاة هم قادرون على أن يبطلوا سحرهم بمثله ويمسحوا على هذا الملال ، وهم يعرفون مما حفظوا من أدب وأمثال إن الملك قريب الرضى والغضب .

وكان الرشيد ، وما فطر عليه من عاطفة ملتهبة ، يصدق ظنونهم هذه فهو هيهات أن يصمد على عاطفة ، فإذا بعث إلى يحيى من يقول له : وقد جاء القصر فلم يجد غير الرشيد فعاد – استربت بنفسك فاتهمتها فأجابه يحيى : لا وليست هذه ولكنه المقدور إذا جاء كانت الحسنة سيئة والله ما أردت إلا التخفيف لم يكن ضير عليه وعلى عاطفته ، إن عاد إليه ثانية فلم يكن بنفسه اثر من حديث الأمس ..

يجب إن يكون الأمر قد تم على مثل هذا النحو – ولا شيء خلافه – إن الرشيد وقد فكر في التخلص منهم والتحلل من سلطانهم فالمعقول ، والذي هو ادنى إليه ، إن الجماعة التي تطيف بالرشيد كانت توغر صدره وينقاد لهم ، بعض الشيء أو كله ، فيرى البرامكة شيئا أو أكثر من الجفاء ثم تأتي جماعة البرامكة ، فيمسحون على هذا الجفاء بلباقتهم وحسن مداخلهم ، فينسجم أمره معهم ثم يعود للنشاز كما كان ينسجم ثانية وثالثة ، وهكذا دواليك حتى تجيء التي لا انسجام معها ولا رأب لصدعها .. والرشيد نفسه ، دونما حديث وشاة ، كان يرى بنفسه بعض

الاحيان ما يسوؤه من تصرفات هؤلاء الذين يديرون ملكه ، فيثور ثم يرى ما يسره فيسكن ثائره ، حتى لقد ضج بهذه العاطفة . فهو يصيح إذا يسمع من يغنيه : –

ليت هندا أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما تجـــد
واستبدت مـــرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد

أي أنا ذلك العاجز .

وان لم يصح هذا الموقف في التاريخ ، فهو ليس بخارج عن تمثيله اصدق التمثيل في هذه النوبات التي تهزه في غمار هذه الفترة ، فهو في مكة في مقام العائذ متعلق بأستار الكعبة يستخير الله في قتل جعفر .

وليس غريبًا إن تعترض الرشيد هذه النوبات ، وتضطرب نفسه كل هذه الاضطرابات ، ويقدم رجلا ويؤخر مثلها ، ليحدث فـــي مملكته حدثا لا مثيل له ، ولا يدري ما يأتي عنه وما يعقبه .
واترك الإحداث ، هذه الصحبة الكريمة وهذه الذكريات لا انتهاء لها ، أقادرة نفس كنفس الرشيد ، فيها إحساس وشعر ، على اجتثاثها واطرحاه دفعة بلا تردد ؟؟ لا ، وقد طال هذا التردد كثيرا ..

على انه مما زاد في استنامة البرامكة ، إن الرشيد عودهم مثل هذا الملال وهم في أوج سلطانهم ، على درجات مختلفة ، فهو لم يذهب في إرضائهم الحد الذي يطرح فيه منافسيهم فالفضل بن الربيع مثلا ، وهو المنافس الأول والعدو الألد لهم قلده في

عام ١٧٣ للهجرة – أي بعد عامين من خلافته – ديوان الخاتم وديوان نفقات الخاصة والعامة . وأكثر من هذا فقد اخذ الخاتم من جعفر ذاته ، وظل يمد في سلطته ويتعهده في الرعاية ، فتراه يقول ليحيى الطالبي في عام ١٧٦ هـ – وقد قال له وأشار للفضل بن الربيع وهذا من فاتك – أما العباسي – يعني الفضل – فلا تقل له إلا خيرا .

أترى من هنا بدأ حديث الملال عام " ١٧٣ –و ١٧٦ " أو إن هذا التاريخ بعيد لا سيما ومن بعد هذين التاريخين ظل مجد البرامكة في صعود ونجمهم في ارتفاع ؟؟... ألا ما أغمض النفس الإنسانية ، إن قراءة موجاتها ومتابعة الخفي من إسرارها وأهوائها ليدق ويعسر على ذويها ، ومن هذه الإسرار والأهواء حب الرشيد للبرامكة وإعطاؤهم فوق ما يشتهون وما يتمنون ، ثم عدم التفريط – بذات الوقت – بعدوهم ومن تمتلئ جوانحه بالكيد لهم : الفضل بن ربيع ...

وأنضجت السنون الجفاء والكره ، ومشى الشر إلى غايته وحزم الرشيد أمره وبطل التردد فيه وسكنت شياطينه ، ولما تم هذا بدأ يلاينهم ويلقاهم بالوجه الباسم والكلمة اللينة ... وكان ذلك في عام ١٨٧ هـ . وحج في هذا ليؤكد البيعة لأولاده ، ويعلق كتبها في الكعبة ويتقوى على الأمر قبل إن يوقع وقعته ، ولما عاد من الحج أقام له جعفر وليمة – على جاري عادته في كل عام يحج به – في عسفان ، فتعلل عليه الرشيد فلم يحضر الوليمة .

ومن العمر فرب الانبار ، كتب إلى السندي في بغداد يقول

له فيه : " يا سندي إذا جاءك أمري فان كنت قاعدا فقم ، وان كنت قائما فلا تقعد حتى تجيء إلي .. " وجاء السندي بن شاهدة حثيثا كما أمره . وكان الرشيد في زورق في الفرات ومعه العباس بن الفضل بن الربيع ، فأمر الخدم برفع التخاتج وأمر الخدم وأمر العباس أيضا بالخروج ثم قال – لما خلا المكان – إلا منه ومن السندي . يا سيدي .

- أتدري لما بعثت إليك ؟؟
- لا والله يا أمير المؤمنين .
- بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميصي لرميت به في الفرات ، يا سندي من أوثق قوادي عندي ؟
- هرثمة يا سيدي
- وأوثق خدمي .
- مسرور الكبير يا سيدي

- صدقت في كليهما . امض من ساعتك هذه وجد في سيرك حتى توافي مدينة السلام فأجمع أصحابك وأرباعك ومرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة ، فإذا انقطعت الرجل فصر إلى دور البرامكة فوكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع ومره أن يمنع من يدخل أو يخرج خلا بيت محمد بن خالد ..

فمضى السندي مسرعا يستريب نفسه على سره .

ويتقدم النهار ويدخل في عصره يحيى على الرشيد يولى

ويعزل ويشحن الثغور ويتلطف بجعفر كثيرا ، ويخرج وإياه للنزهة فيدنو بفرسه منه ليضع راحته على كتفه زيادة في البر والإيناس ، ويمشي الليل إلى النهار والبرامكة غارون لا يدرون ما يخبئ لهم الليل في طياته ..

ولما مضت هداة من الليل جيء بجعفر على أعنف صورة فقتل ووافى أباه الخبر في السحر ... وسجن وأولاده في دير القائم هي ليلة السبت لانسلاخ محرم من عام ١٨٧ للهجرة ، وقد خلدها الشعر :

أيا سبت يا شر السبوت صبيحة ويا صفر المشؤوم ما جئت أشأما
اتى السبت بالأمر الذي هدركننا وفـــي صفــر جاء البلاء مصمما

طويت صفحة مشرقة في تاريخ الإسلام .

وفاء الناس وطلاب الحاجات إلى راحة هي شر من التعب

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السرى وطي إلفـــيافي فدفدا بعـــد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفـــر ولن تظفري من بعـــــده بمســود
وقل للعطايا بعد فضـــل تعطلي وقل للرزايا كل يـــــوم تجـــدد
ودونك سيفا برمكيـــــا مهندا أصيب بسيــف هاشمـــي مهنـــــد

وحمل هرثمة جثة جعفر إلى بغداد ، ومعه أمر الرشيد بشطرها شطرين وتعليقها مع الرأس على ثلاثة جسور..

وبقيت معلقة مدة ، منهم من يقول انها سنة ، ومنهم من يقول انها ثلاث ، ولست أضنها وصلت إلى السنة ، لان العباس بن الفضل يقول "حينما قدمت والرشيد _ ولم يعين من أين القدوم _ وفي أية سنة ، طلع علينا وجه جعفر تبرق الشمس من بين عينيه . والشمس لا تبرق من جبين مضت عليه سنوات وهو مصلوب تسفو عليه ريح وتلفحه شمس بغداد " .

ولم يقل الرشيد من البرامكة سوى جعفر ، ولم يقتل بسببهم سوى انس بن أبي صبيح ، و هو كاتب جعفر وصديقه جاء به صبيحة مقتله ودار بينهما كلام ، لم يذكر منه التاريخ شيئا ، ثم أمر السياف بأن يطيح برأسه بعد إن ناوله سيفا من تحت متكئه وهو يتمثل :

تلمظ السيف من شوق إلى ناس فالسيف يلحظ و الأقدار تنظر

وقال الناس أن من جملة أسباب قتل أنس هذا زندقته ...
مظلومة هذه الزندقة .

ومن تحصيل الحاصل القولان الرشيد صادر أموالهم وقصورهم _ بعد أن أبرز منها النساء إلى قصر البانوقة _ وأخذ ضياعهم . واختلفوا في مقدار الأموال المصادرة ، فقيل انها بلغت ثلاثة ملايين دينار ، لا يدخل معها في الحساب القصور والضياع .

في السجون

اعتقلوا في العمر ، لان عبارة التاريخ تقول : إن الرشيد أمر من في العسكر بمنع الشخوص إلى مدينة السلام . ومن هنا تغمض الرواية في ذكر مكان السجن على إن في التاريخ ما يشير إلى أنهم كانوا قريبين من الرشيد ، يرسل إليهم ويرسلون إليه ، ويتهددهم ويستعطفونه ، ويقيم عليهم من ينقل إليه إخبارهم ويأتيه بأنبائهم .

إذن فالاعتقال بعد العمر كان في أول الأمر في بغداد ، واسميه _ عن قصد _اعتقالا ، فقد كان الحال معهم سهلة لا شدة فيها ، فمعهم عدة من خدمهم ، ولم يفرق بينهم وبين عدة من زبيدة بنت منير أم الفضل ، ولكن ذكرها وحدها لا يمنع وجود غيرها، فلم تذكر إلا لجلالها ، لان الذي لا يفرق بينهم وبين خدمهم لا يفرق بينهم وبين أزواجهم ... ثم انقلبت هذه الحال، واشتد الرشيد وضيق عليهم ، حينما اشتد في إخلاص قريبه عبد الملك بن صالح صاحب الحكاية المشهورة مع جعفر اتهمه بأنه يطمع في الخلافة ، فبعث إلى يحيى يسأله عنه فقال : ما عهدت به إلا الإخلاص لك ولو شمت فيه غير ذلك لكنت صاحبه دونك لان ملكك كان ملكي ، وقد يكون في هذا الجواب المنطقي الكفاية ، لو أن يحيى كان في وضع غير وضعه هذا ، فتعود إليه رسله ثانية وثالثة ، ولكنه سيقتل ابنك الفضل إن لم تقل الصدق . فيقول : هو رجل مسلط علينا فليصنع ما يشاء ولا أتجنى على الناس فيفرق بينه وبين ابنه عدة أيام ، ولم لم يجد عنده جديدا من الأمر أعاده إليه . ولعله في غمار حادث عبد الملك يطالب الفضل بمال بلغه أنه يكتمه ، فيضرب ضربا مبرحا بعد أن يقول الفضل:

إن أمير المؤمنين يعلم أني لا أصون عرضي بمالي ولو ملكت منه شيئا لدفعته إليه . ولسنا نعرف كم دام هذا العسف والتضييق ، ولكننا نعرف أن قضية الملك بن صالح أثيرت ، واتهمه الخليفة في ذات العام الذي نكب به البرامكة ١٨٧هـ وسجن في السجن الموسع فيه عند الفضل بن الربيع ، حيث بقي حتى وفاة الرشيد . فهل انتهى التضييق عليهم مع انتهاء قضية عبد الملك ، إذ ثبت للرشيد براءته بشهادة قائد (شرطته) عبد الله بن مالك وسجنه عند الفضل كان نوعا من التدبير الإداري ، فهو فيه موسع عليه ومقضية حوائجه ؟؟ يجوز أن يكون هذا ! والروايات التي تقول أن معاملة الرشيد لهم كانت ضربا من العاطفة المتقلبة يصفو فيوسع عليهم ثم يسعى الواشون بهم عنده فيقسو عليهم ، يمكن تفسيرها أنها وقعت في غضون هذه المدة التي أعقبت النكبة وأثيرت فيها قضية عبد الملك ، والتي نجهل مدتها .

وفي غضون هذه المدة _ في بغداد _ تقع هذه الحكايات المبثوثة في كتب الأدب والتي تصف طرفا مما عانوه ، وطرفا من عاطفة الرشيد التي تتناوب عليها عوامل الغيظ وعوامل الذكرى .

رفع إليه الموكل في حراستهم ، أنه سمع الليلة الماضية في حجرتهم ضحكا عاليا متصلا ، فبعث الرشيد من يستقرئ له الخبر، فسألهم فلمي ينكروا ، قالوا : سكباجة " لحمة بخل " فاحتلنا حتى جئنا باللحم والخل ،ولما وضعنا القدر على النار وكاد اللحم ينضج عثر لفضل بالقدر فانكفأت فذكرنا واعتبرنا وضحكنا ، فرق قلب الرشيد وأمر أن تحمل إليهم في كل يوم

مائدة ، وان يدخل عليهم من يختارونه لإيناسهم ، فاختاروا سعد بن وهب الشاعر .

ويأتي مسرور يتفقدهم ليلا ، فيجد يحيى قاعدا والفضل متكئا ، أخذت به سنة من النوم . فيسأله الرشيد وأي شيء كان غطاءه فيقول : غطاء بال ، فيهب له فروا ثمينا . . .

ثم استرخت الحال ولانت عاطفة الرشيد فأصبحوا قادرين على إن يتصلوا بأصحابهم وخرج الرشيد إلى الرقة وأشخصهم معه . ويذكرون أن يحيى كان مطلقا لم يقيد . وبعث الرشيد من يقول له أقم حيث أحببت ، فيقول : حيث يقيم ولدي ورضي أن يسجن بالرقة . ووهب الرشيد إلى أم الفضل _ مرضعته _ ثلاثمائة إلف درهم وثيابا غالية . ويعلل " ارثر كلمان " في كتابه عن الفرس أن خروج الرشيد بهم من بغداد كان تخوفا من كثرة أصحابهم فيها .

ويظهر أن سجن الرقة لم يكن نهاية المطاف ، فابن خلدون يذكر أنهم استقروا في الكوفة . وفي الكوفة تذكر الروايات الأدبية إن أم جعفر سئلت عن حالها ، فقالت : حسبكم إن اذكر لكم انه مر علي عيد كهذا وعلى رأسي مئات الوصائف وها أنا في عيدي اليوم أشتهي لحما . ولا شك إن هذا اغراق في وصف حالة البؤس التي وصل إليها هؤلاء القوم فما كان لام جعفر إن تبلغ هذه الدرجة من الخصاصة والوفاء إليهم على الأقل _ يملأ قلوب الناس . وكلما ارادة الناس في مثل هذه الروايات تروي عنهم هو إن يستخلصوا العبرة الرخيصة من حياتهم ، فأخذوا يلفقون حكايات

البؤس ويبالغون في حكايات النعيم ي سالف عهدهم ليقولوا عبرتهم .
الأيام دول والدنيا غدارة . فافراد العائلة التي لم يتناولها السجن ، حالتهم حسنة _ نوعا ما _ فهذه ابنة يحيى تأتي أباها في سجنه لتستشيره في استثمار مال لها ، فيقول لها استشيري من حظه في إقبال ولا تستشيري من حظه في إدبار... والفضل قادر على أن يكتب إلى صديق من أصدقائه ، يحيى بن معاذ ، ليبعث إليه بمال ليكافئ به من عجالة من ضرب السياط ، فيبعث إليه بعشرة آلاف درهم .

ثم يذكر التاريخ إن يحيى و الفضل توفيا في سجن الرقة ، فهل معنى هذا أنهم نقلوا من الكوفة إلى الرقة .. الظاهر أنهم لم يكونوا يقيمون طويلا في سجن واحد ، وأنهم كانوا ينقلون من سجن لآخر ، ولسنا نتكهن في السبب ، فذلك مما لن يشر إليه التاريخ ، ولكن عدم تأوههم من ذلك وعد الناس له من باب المصيبة عليهم ، يجعلنا نظن انه إلى جانب العامل السياسي ، كان يحسب حساب الترفيه عنهم بالنقلة من مكان لآخر .. ولسنا قادرين على الزعم إن السجن كان كله في الرقة ، لذكرها في أول سجنهم وذكرها عند وفاتهم ، لان حديث النقل من مجلس لمحبس يتردد في روايات كثيرة . يقول الكرماني أب الفضل نقل من محبس كان فيه إلى محبس آخر ، فوقفله أحـــد العامة ودعـــا عليه . فاضطرب اضطرابا شديدا ، وسأل بعض من كان معه إن يلقى الرجل فيسأله السبب : وهل لحقه من ظلم .. فقال الرجل : لا ، ولكن قيل لي إن هؤلاء زنادقة ، فسري عن الفضل وتمثل :

غير ما طالبين ذحلا ولكن   مال دهر على أناس فمالوا

ويذكر أحمد بن داوود بن بصطام عن أبيه ، وكـــان يخلف الفضل بن الربيع ، أن السجان لقي في ثني مصلى الفضل ، حينما نقل من محبس لآخر ، رقعة فيها :

إن العزاء على ما ناب صاحبه	في راحة من عناء النفس والتعـــب
والصبر خير معين يستعان به	على الزمان ومن ذا فيه لم يصب
لو لم تكن هذه الدنيا لهــــــا دول	بيـــن البرية بالآفـــات والعطب
إذن صفت لأناس قبلنـــا وبهــم	كانت تليق ذوي الأقدار والحســـب
نضو الحوادث نضو ليس يسعفه	شيء سوى الصبر من كد ومن تعب
والله ما أسفي إلا لواحــــــــدة	إلا أكـــــــون تقدمت المنون أبى
فكان يؤجر في ثـــــكلي ويتبعني	دعاؤه لي دعـــــــاء الوالد الحدب

وفي هاتين الروايتين إشارة إلى نقلة الفضل فحسب من سجن لآخر ، والثانية صريحة واضحة انها كانت بعد وفاة أبيه ..

وقد وقعت منهم محاولات عديدة للتأثير على الرشيد ليعفو عنهم ويطلقهم من سجنهم ، ولكن الرشيد وقد عسفهم وصادر أموالهم ووترهم بقتل جعفر ، لم يكن قادرا على هذا العفو دون أن يفك فيما عسى أن يعقب من نتائج ، قد تكون وبالا عليه في ملكه وعرشه ..

فأول محاولة لذلك تقوم بها أم الفضل ، وهي أولاهم وأولى الناس بهذه المحاولة ، لأنها أمه بالرضاعة . استأذنت عليه مـــن _قصر البانوقة _ فلم يأذن ، ثم غافلت الحرس فخرجت إليه . فقال الحاجب ظئر أمير المؤمنين في الباب، قال : ويلك أساعية ؟

فقال : وحافية . فأمر بإدخالها وتلقاها بين عمد المجلس وقبل رأسها .

قالت : أيعدو علينا الزمان ويجفونا الأعوان وقد ربيتك في حجري وأخذت لرضاك الأمان من عدوي ودهري ؟ ثم ذكرته بيحيى وإخلاصه وتعرضه للموت من أجله _ في زمن أخيه الهادي _ فقال : قد رحم . قالت يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

_صدقت ، ولكن هذا مما لم يمحه الله.

ولكن الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد وقال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فذكرته بقوله تعالى " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " . وبعد حوار موجع أخرجت له حقا في ثناياه وذؤابته واستشفع بها ... بيد أن هذا الموقف لم يجد ، وأن حرك عاطفة الرشيد حتى ظن من في المجلس أن قارب العفو . ولا غرابة فالدم المائر لم يجف بعد ، ونفسه مازالت في عنفوان ثورتها .

ثم استعانوا بالأمين ، فبعثوا إليه بقصيدة يلتمسون عونه في تقديمها للرشيد ، ويذكر صاحب العقد الفريد أن زبيدة هي التي قدمتها للرشيد وإذا صحت هذه الرواية ، ولا شيء يمنع من قبولها

كما يظهر من سياق التاريخ ، فتكون أم جعفر بريئة مما عصبها به التاريخ ، من أن لها يدا في حادث النكبة ، وكما يرجح _ براءتها _ بعض كتاب الغرب .

قرأ الرشيد القصيدة وهي لسليمان الأعمى _ من رجال البرامكة _ على لسان يحيى ::

يا ملاذي وعصمتي وعمادي	ومجيري من الخطوب الشداد
بك قام الرجاء في كل قلـــب	زاد فيــه البـــــلاء كل مزاد
إنما أنت نعمـــــــــة أعقبتهـــا	نعم نفعهــــا لكل العبـــــــاد
إن تراخت عني يداك فواقا	أكلتني الأيام أكـــــــل الجراد

فوقع عليها . عظم ذنبك أمات خواطر العفو عنك .

لم تجد هذه المحاولات ، ولم تجد مثيلاتها ، فأمضوا ما تبقى لهم من حياة في السجن . والتاريخ إذ يدخل معهم المحبس لا يعنى إلا بيحيى والفضل ، حتى يكاد ينسى البقية ، وهما هنا في السجون كما كانا في الحياة ، كبار النفوس والأحلام ، تروعك من الشيخ وولده قوة الجلد وعظم الاحتمال وتقلبهم للمكروه وصبرهم على لأوائه .

يقول الولد للوالد : أبعد الملك والسلطان إلى عيشة كهذه !؟ فيرد عليه : وما يدريك لعلها دعوة مظلوم سرت بليل فغفلنا عنها .

وتروي هذه الأبيات ليحيى قالها وقت التضييق عليه :

قطعت منك حبائـل الآمـــال وأرحت من حل ومن ترحـــال
ووجدت برد اليأس بين جوانحي فحططت عن ظهر المطي رحالي
فالآن يا دنيــا عرفتــك فاذهبي يا دار كل تشتـــت وزيـــال
والآن صار لي الزمـــان مؤدبا فغـــدا وراح علي بالأمثـــال

وقد رويت له وللفضل أشعار غير هذه لا تخرج عن معناها ، وهي الرضى والصبر وضرورة التأسي . وقد كتب إلى يحيى أحد أصدقائه يسأله عن حاله فأجابه : أفضل الناس حالا في النعمة من استدام نعيمها بالشكر واسترجع فائتتها بالصبر . وقد صدق الشيخ فقد شكر على النعمة وصبر على البلوى وقال له أصدقاؤه : لو كتبت إلى فلان صديقك ليعينك بمال فقال : دعه يكن صديقا .

وفي عام ١٩٠ هـ وافت المنية هذا الشيخ الحكيم _ وكان موته فجأة ومن غير علة ، ولما وصل النبأ إلى الرشيد اغتم له وأظهر حزنا شديدا ، وقال : مات اليوم أعقل الناس .

وفي عام ١٩٣ هـ توفي الفضل ، قبل الرشيد بمدة قليلة لا تزيد على خمسة شهور ، وهو في الخامسة والاربعين من عمره ، فصلى عليه إخوته في القصر _ محبسهم _ ثم اخرج للناس فكثر الزحام على جنازته من العامة والخاصة ، واشتد الحزن عليه ودفن إلى جنب قبر أبيه ورثاه أحد الشعراء :

ليس نبكي عليكم يا بني بر مك إن زال ملكـــكم وتقضى
بل نبكيكم لنا ولأنـــــــا لم نر الخير بعدكم حل أرضـــا

أما بقية العائلة ، فقد توفي الرشيد وهم بالسجن ، ولما تولى الخلافة الأمين أطلق محمدا وموسى ، ووصل العائلة رجالها ونساءها و أحسن إليهم و لكنه لم يستخدمهم . فلما استفحلت الفتنة وأحاطت الجيوش ببغداد شخص من هذه العائلة بن الفضل _ العباس وابن محمد واحمد _ إلى خراسان إلى عند الفضل بن سهل صديقهم وصنيعتهم ورجل المأمون فأكرهما الإكرام الذي ما وراءه وبرهما البر كله . فلما ادخلهما على المأمون ليقبلا يديه أبى أن يجلس والمـــأمون يعزم عليه بالجلوس .

_ اجلس يا ذا الرئاستين ، ولا تقم .

_ لا يا أمير المؤمنين ، إن لهما علي حقا أحاول أن اقضيه . فخلع عليهما المأمون واجري عليهما أرزاقا واسعة . وانضم محمد إلى طاهر بن الحسن قائد جيش المأمون .

ثم لحق موسى بهرثمة وسطع نجمه في حرب أبي السرايا ، ولما ورد المأمون بغداد أكرمه وحظي لديه ويقال انه ولاه ثغر السند .

وفي عام ٢١٦ هـــ نجد احد ولاة هذا الثغر عمران بـــن موسى البرمكي نهاية ، ومهما تكن سعيدة ، فلن تنسى العائلة ما تجرعت من حسرات وذاقت من لوعات .

ونسجل قبل الانتهاء إن البرامكة لم يحاولوا في سجونهم أن يخرجوا منها في غير عفو مشروع يتكرم به صاحب الأمر ، ولهذا

سبب غير الرقابة الشديدة ، وهو إن الذين سجنوا ليسوا شخصا أو أشخاصا وإنما هم عائلة . فيها الطفل الصغير والامرأة المفتقرة إلى العون .. والى أين الهرب في هذه المملكة التي تضم ممالك واسعة .

ويتصل بحديث السجن خاصة والنكبة عامة . هذه الصحائف البارعة في الوفاء لهم . التي سجلها الأدب للناس من مختلف الطبقات ، حتى كان البعض منهم يتعرض للقتل بجهده ، بل تعرض له وقتل بسببه ابراهيم ابن عثمان بن نهيك كان يذكرهم كثيرا ويبكي جعفرا أحر البكاء ، وإذا ما اخذ منه الشراب امتضى سيفه واخذ يصيح بين جولريه وأولاده : واجعفراه واسيداه ! لأثأرن بدمك ولأقتلن قاتلك . ووشى به ابنه وشهد عليه خادمه ، فامتحنه الرشيد بإظهار الأسف والندم على قتل جعفر ، فلما سمع ذلك ابراهيم بكى وقال : قد والله أخطأت يا سيدي وهل يوجد في الدنيا مثله ؟ وقد كان منقطع النظير في الناس أجمعين .

فقال له الرشيد : قم عليك لعنة الله ، وقتله .

ولما حمل البرامكة إلى الرقة ، رأى الحسن بن عيسى يحيى بن خالد ، وكانت له عنده يد سابقة ، فقال الحسن : لا أمنعه من نفسي شيئا كنت أبذله قبل اليوم فترجل عن دابته ويحيى يصيح به إياك إياك ! فلم يلتفت إلى زجره ، وجاءه مسلما فقال له : افهم عني لو بقي في الأمر فيمن كان قبلنا لم يصل الينا. ولو بقي فينا لم يصل إلى من بعدنا ، وقد كنا قبل اليوم دواء فأصبحنا داء فإياك والعودة إلى مثلها .

ويتردد الناس على قصورهم يبكون عليهم ويتوجعون لما حل بهم ، خفية وعلى حذر ، وأوامر السلطان صريحة واضحة بمنع ذلك تحت طائلة الموت . ويجن جنون الشعراء ، فيرثيهم جلة شعراء هذا العصر .

هذا الخاسر يقول :

هوت أنجم الجدوى وشلت يد النوى وغارت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمـــــــك بها يعرف الهادي بعيــد المسالك

ثم يقول : اشجع .. فإذا هم ليسوا أنجم جود فحسب ، وإنما هم الخير في الدنيا ارتفع عنها بارتفاعهم :

قد ســـار دهر ببني برمك ولم يدع فيهم لنا لقيـــا
كانوا أولى الخير وهم أهله فارتفع الخير عن الدنيا

ويرثي النواسي ، وقد كان كارها لهم أيام مجدهم وسلطانهم ، ويرثيهم آخرون لم يشتهروا بالشعر : صالح الأعرابي ومنصور اليمني سليمان الأعمى وغيرهم كثير :

ومن أروع ما قيل فيهم قصيدة الرقاشي وهي طويلة ، يقول فيها :

هدأ الخالون عن شجوي وناموا وعيني لا يلائمـــــــــها منام
وما سهـــــــــدي بأني مستـــهام إذا سهر المحب المستهـــــام

ولكن الحـــــوادث أرقتني فبي أرق إذا هجع النيـــام
أصبت بسادة كانـــوا عيونا بهم نسقي إذا انقطع الغمام
أألهو بعدكم وأقر عينـــــا علي اللهو بعدكـــــم حرام
أما والله لولا خـــوف واش وعين للخليفـــــة لا تنـــام
لثمنا ركن جذعك و استلمنا كما للناس بالحجر استلام

إن القصائد التي قيلت في مصابهم ليست دون التي قيلت في مديحهم روعة. انها نكبة بقيت ذكراها موجعة ، تحز في نفوس أهل بغداد .. أجيالا . أأصاب فيلبي إذ يقول . انها لطخة في حكم العباسيين ، كما كانت كربلاء لطخة في حكم الامويين ..؟؟!.

بين الغزل والسياسة

لم يذكر الرشيد أسبابا _ يطمئن إليها الناس في نكبة البرامكة عامة ، ولم يذكر _ بوجه خاص _ البتة ، السبب أو الأسباب التي دعته لقتل جعفر ، بقي مصرا على الكتمان ، ولم يكن في علاقة الرشيد والبرامكة _ البادي للناس منها _ ما يدعوهم إلى رد الأمر لسبب منطقي صريح واضح ، فاختلفوا واخترعوا ولفقوا أسبابا متناقضة ، وجاء التاريخ الإسلامي في أول نشأته _ وهو جمع الروايات المتداولة _ فأخذ أقوال الناس دونما مناقشة ، فكانت منه هذه الصحائف المبلبلة المحيرة .

وضع المؤرخون بعد الناس لهذه النكبة _ جملة أسباب ، واختلفوا أيها المرجح على غيره . وهل جاءت كلها جملة واحدة ، أو أن سببا واحدا هو الذي أوقد نارها ونفخ في ضرامها ؟؟ .

من هذه الأسباب التي وضعوها ، حكاية العباسة أخت الرشيد وإطلاق الثائر يحيى الطالبي . وهذان السببان هما أقوى ما يتكئون عليه ، وهم في اختلاف في تقديم احدهما على الآخر ، ولكنهم يولون حكاية الطالبي عناية خاصة . ثم يجيء سبب ثالث وهو استبداده بالملك والمال ، وأن جعفرًا ابتنى قصرا عظيما أثار غيرة الرشيد وحسده . ثم سبب رابع هو نقمة رجال البلاط عليهم ، وعلى رأسهم الفضل بن الربيع ، الذي مد لهم في العداء وأهب لهم الضغينة ثم أعقبهم في دست الوزارة .

وهناك أسباب غير هذه لم تثر انتباه كل المؤرخين والكاتبين ، والذي أثارت شيئا من انتباههم لم يروا لها من القوة ما تستأهل معه العرض المفضل .. ذكروها على هامش الحادث ذكرا مقتبضا ، كحديث الملل وشهوة الاستبداد . وأول أسباب هذه النكبة وأقواها التي أوردها المؤرخون هي : "العباسة" .

* * *

العباســـــة

يقول الطبري في تاريخه : " وقد حدثني احمد بن زهير احسبه عن زاهر ابن حرب أن سبب هلاك البرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وأخته عباسة بنت المهدي ، وكان يحضرها إذا جلس للشراب وذلك بعد أن علم جعفر قلة صبره عنه وعنها وقال ازوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي . وتقدم إليه إلا يكون منه شيء مما يكون بين الرجل وزوجته . فكان يحضرها مجلسه إذا جلس للشرب ثم يقوم لحاجة

... وهما شابان فحملت وولدت غلاما فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك فوجهت بالمولود مع الحواضن إلى مكة فلم يزل الأمر مستورا عن هارون حتى وقع بين عباسة وبعض جواريها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلي . فلما حج هارون هذه الحجة أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي فيه من يأتيه بالصبي ومن معه من الحواضن ..
فأراد قتل الصبي ، ثم تحوب . وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاما بعسفان إذا انصرف شاخصا من مكة للعراق ، فلم يحضر طعامه هذه المرة . ولم يزل جعفر معه حتى نزل بالانبهار فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .. " هذا أول مصدر تاريخي للرواية .
ثم تعاقب المؤرخون . والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون وابن الطفطقي والاتليدي غيرهم ، فعرضوا إليها بما لا يخرج في جوهره عما رويناه ، وان اختلفوا في العرض وفي بعض مناظر الرواية

التي لا تلمس الجوهر ، فمنهم من جعل الغلام غلامين ، ومنهم من هرب بهما لليمن حتى جاء بهما أمر الرشيد ، ومنهم من لم تدركه الشفقة فجعل الرشيد يأمر بقتلهما في بغداد وهو يبكي أحر البكاء .. واختلفوا في كيفية اتصال العباسة بجعفر ، فهي مرة تستعين بأمه ومرة بالقرمانة ، واضعين اللوم كله على هذه العباسة ، فقد كان جعفر لا يرفع إليها بصره إلا إجلالا وفرقا من الرشيد ، فلما جاءت بها القهرمانة _ على جاري العادة _ في تقديم جارية إليه كل أسبوع ، لم يعرفها .. وكان ما كان .

وتجيء رواية بعد هذه الروايات فتزعم أن جعفرا أعلم والده بما تم فطلب إليه أن يعلم الخليفة بذلك إذ الذنب ذنبها :

_ اعلمه قبل أن يعلم فيكون وبالا عليك .
_ لا يا أبت ولو كان بذلك ذهاب روحي ، فلست بقادر بعد أن اعلمه أن ارفع إليه نظري ليقض الله امرأ كان مفعولا .
_ إني أحذرك ..
_ لا اقدر ..

ويسدل الستار سنوات ثم تزيحه جارية _ وفي رواية ، أم جعفر _ وإذا طفلان يلعبان في مكة .. وإذا رأس أبيهما منزوع من جثته وأمهما مدفونة وهي حية في قبو من أقبية القصر ..

وتتعاقب القرون على الرواية ذات الفصول ،ثم يجيء ابن خلدون فينفيها ، ويقول إن هذه الرواية من عمل الخيال وليست من الواقع ، بجملة أسباب :

١ _ لمكان العباسة في دينها وأهليها ، فهي بنت عبد الله بن العباس ، ليس بينها وبينه سوى أربعة رجال أشراف .

٢ _ قربها من عهد البداوة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف مواقع الفحش .

٣ _ كيف تدنس شرفها وتلحم نسبها بمولى من العجم ؟ وكيف يسوغ للرشيد أن يصهر إلى مواليه من العجم من أعظم آبائه وجدوده ؟

وأخيرا ، كما يقول :

٤ _ لو نظر المتأمل في نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله من موالي دولتها وسلطان قومها .

هذا ما اعتمد عليه شيخ المؤرخين في درء التهمة عن العباسة ، واني لأجرب أن أكون ذلك المتأمل الذي ينظر المنصف ويقيس الأمور بأشباهها ، فلا اجد فيما ذكره شيخ المؤرخين ما يقنعني في براءة العباسة إذا كان كل ما تستند عليه البراءة ما ذكره وألممنا به .

ابن خلدون _في هذه _ لم يكن مفكرا ينظر إلى طبيعة الأشياء وطبيعة النفس الإنسانية ، وما يستحيل صدوره عنها وما لا يستحيل ، كنفس إنسانية معراة من مظاهر سرعان ما تخلعها وترتد إلى غرائزها الأصيلة ، تلتقي عندها كل

نفس إنسانية ، بصرف النظر عن فوارق الطبقات . يشدد عليها هذا الشيخ دونما حاجة إلى التشديد ، لأنها تباعد بين الناس في المظهر وليس في الغرائز وما في السريرة الإنسانية .

ليس ما يمنع الرشيد أن يصهر إلى مولى من مواليه وقد أراد عمر الخليفة أن يصهر إلى بلال ، بل يذكرون أن المأمون أراد أن يصهر إلى الفضل بن سهل ويزوجه بابنته فامتنع الفضل ، وقال لا اقبل لو قتلتني . أراد أن يقول هذا الشرف يقتلني .

وليس في طبيعة النفس الإنسانية ما يمنع العباسة _ كامرأة _ من الميل إلى جعفر . ومن العجب أن ابن خلدون يعلل في ذات الصحيفة سبب مقتل جعفر باستبداد عائلته بالملك وعظم أمرهم ومشاركتهم له بالسلطان ، فجعفر _ برأيه _ في قوة توازي قوة الخليفة ، أو تزيد عنها فما تطلب العباسة كامرأة. أغنى ؟؟ إن المؤرخ ذاته يقول أنهم استبدوا بأموال الجباية حتى كاد يطلب الرشيد اليسير من المال فلا يقدر عليه . لعلها تطلب جاها أو سلطانا ؟ انه يقول أنهم مدحوا بما لم تمدح به الملوك .

تريد الملوك مدى جعفر	ولا يصنعون كما يصنع
وكيف ينالون عليـــــاءه	وهم يجمعون و لا يجمع

بل لعلها تطلب وسامة ؟ لقد كان جعفر وسيما ذا فتوة وظرف ، وهو بعد من عائلة فارسية عريقة ذات مجد قديم .

أما بعد العصر عن عوائد الترف وقربه من البداوة وسذاجة الدين فأمر يحتاج التصديق به إلى إن نغالط أنفسنا في كل ما وصل الينا من آثار تروي ثراء هذا العصر وترفه وجواريه

وموسيقاه ، وابن خلدون هو الذي ينقض هذا القول في حديثه عن المـــأمون وزواجه من بوران وما كان فيه من بذخ بالغ وترف عظيم .

وبعد .. إن البذخ والترف يعينان على المعصية ..

ولكن المعصية موجودة قبل البذخ والترف ... في دم الإنسان .

مسكينة هذه العباسة ! إن أدلة ابن خلدون تتهافت لدى المتأمل الذي ينظر نظر المنصف .. سنأتي بحجة تتمناها ألوانه المقنعة .

من هي العباسة ؟؟ يقول ابن قتيبة _ في كتابه المعارف _ وهو ينقل عن المعاصرين انها إحدى بنات المهدي ولام ولد زوجها الرشيد من محمد بن سليمان فمات عنها فزوجها ثانية من ابراهيم بن صالح ابن علي ، وكلاهما ولد عمومته . كان محمد بن سليمان يسكن البصرة وولي عليها وهو من أغنى أغنياء عصره ، وتوفي في عام ١٧٣ هــ واحضر الرشيد أمواله ، فبلغت ستين ألف درهم حملت إليه بالسفن . أما ابراهيم بن علي فتوفي عنها في عام ١٧٦ هــ ثم تزوجها محمد بن علي ابن داؤد بن علي بن عبد الله بن العباس وتوفي عنها بعد زمن ، وأراد إن يخطبها عيسى بن جعفر بن المنصور ولكن النواسي عز عليه مصرع الثلاثة الأزواج ، وكلهم كبير في نفسه وفي نسبه الباذخ فقال :

ألا قل لأمين الله وابن القادة الساســــه
إذا ما ناكث سرك أن تفقده راســــــه
فلا تقتـــــــله بالسيف وزوجـــه بعباسة

فعدل عن هذا .

وليس في هذه الأبيات غير الإشارة إلى شؤم الزواج منها ، ولا يمكن أن تحمل على الإشارة إلى مقتل جعفر باعتبار انه تزوجها ، كما حلا لابن خلكان أن يستنتج ، لان البيت الثالث يعني أن الزواج منها يغني عن القتل بالسيف ، ما زالت النتيجة _ وهي الموت _ مضمونة دونما قتل .. لان جعفرا _ على فرض زواجه منها _ لم يغنه هذا الزواج عن القتل بالسيف ...

ولا نعرف كم بقيت في عصمة زوجها الثالث ، فالتاريخ غير معني بهذه النواحي ولم يذكر من بنات المهدي غير البانوقة ، لأنها كانت عزيزة عليه ، عزاه بموتها الشعراء ، ثم "علية " لمكانها من الفن . وهذه عباسة مر بها مرورا هينا .. في غير حديث هذه التهمة ..

ويظهر أن حكايتها مع جعفر أشيعت بعد وفاة الرشيد ، لأننا نجد عبد الملك بن الفضل بن الربيع يقول للرشيد ، وقد استقبلتهم جثة جعفر معلقة على الجسر : لقد عظم ذنب لم يسعه عفو أمير المؤمنين . فيقول له غاضبا : من يرد غير مائة يصدر بمثل دائه ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته . وتسأله "علية " أخته : لم أر لك يوم سرور منذ قتلت

جعفر فلأي شيء _ يا سيدي _ قتلته ؟ فيجيبها يا حبيبتي لو علمت أن قميصي يعلم السر لمزقته .

الرشيد لم يبح في سبب قتل جعفر ، ولو باح به لأراح الناس والمؤرخين ، فليس ما يمنع من هذين السؤالين : سؤال ابن وزيره وسؤال ابن أخته ، ولكن الذي يستحيل أن تكون العباسة هي السبب ، ثم تسأله "علية " أو تكون حديثها شاع بين الناس ، ثم يسأله ابن الفضل إذ لا محل لهذا السؤال لأنه معروف وشائع بين الناس ، ولىنه _ثانيا _ إن أريد به تأكيد المعرفة "فقلة ذوق " لا يرتكبها عبد الملك ولا يحتملها الرشيد .

إذن فليست هي العباسة . ليست هي إن صحت هذه الرواية ، ولكن الرواية قد تصح وهي _ بعد _ ككل رواية تاريخية عرضة للشك ، فهل هناك ما ينتقصها غير هذه ؟؟ .. نعم وكثير ...

إن الحكاية المعروضة في التاريخ ، تحمل في طياتها جذور بطلانها وفسادها ، وهي لهذا لا تصمد للمناقشة طويلا ، تتهافت كبيت من ورق ، وفي هذا ذاته اكبر دحض لها .

فأول ما يطالعك في الرواية ، أن الرشيد كان لا يطيق في مجلس انسه فراق أخته هذه ولا فراق جعفر ، فكيف احتمل فراقها وان يبعدها للبصرة بزواجها من محمد بن سليمان ؟ ثم كيف احتمل هذا الفراق ثانية وثالثة ؟ .. ولم لا يطيق فراقها ، ولم نسمع في القديم والحديث أن أنسانا سويا يبلغ به الوله

بأخته حدا لا يصبر عنها ولا يحتمل مفارقتها له في مجلس أنسه وشرابه ؟!..
لم كل هذا الوله ، وكيف يجنبها هذه المجالس التي ربما أراح المرء فيها نفسه،
فطرح شيئا غير قليل من التزمت والوقار ! .. وهو وله غريب ، كان يجب
_ لو كان _ أن يلتفت إليه المؤرخون ، لأنهم التفتوا إلى وله المهدي
بالبانوقة ابنته ، و الرشيد بزبيدة زوجته . ويأتي بعد هذا الوله الشاذ حديث
عقد النكاح ، وهو أمعن في الشذوذ : عقد يحلل النظر ويحرم ما دونه ، ولم
يرد في الإسلام نظيره .

واحتمل هذا كله وصدق به . ولكن كيف قدرت على إخفاء "الحمل " عن
أخيها هذا الذي لا يطيق فراق مجلسها ..؟! قدرت على هذا لا مرة واحدة
وإنما مرتين . وكيف استطاعت الولادة دون أن تلحظها عين من عيونه ؟!
وأية أعذار انتحلت للتغيب عن مجالس أخيها التي تعقد في القصر ؟ "وتحمل "
العباسة وتضـــع أطفالها كمــا تضع كل النساء ذوات الأزواج ، لا عجلة من
خوف ولا فرقا من ملك ، ليس اشد منه عسفا وقت الغضب ، وترسل بهم مع
حواضن إلى مكة .

إن هذه الرواية الخيالية لا تستحق التصفيق من النظارة ، لان نسيجها
مهلهل وأحداثها ليست من الواقع ...

ومما يدل على أن مؤلفيها هم هؤلاء العامة من الناس ، وبعد النكبة بمدة
ليست بالقصيرة ، ما يرويه عبيد الله بن خاقان ، من اته سأل أيام المتوكل
مسرورا الكبير ، وقد عمر إلى تلك الأيام ومات فيها عن سبب مقتل جعفر ،
فقال :_ كأنك تريد

ما تقول العامة من حديث "المرأة " . فقال له ما أريد غيره ... فيقول له : لا والله ما لشيء من هذا أصل ، ولكنه مال عنهم وحسدهم . مسرور ذو رأي يعول عليه في شؤون بلاط الرشيد، وفي هذه القضية بشكل خاص ، وهو يعد من أوثق خدام الرشيد وارفعهم منزلة ، وسأله الرشيد _ غير مرة _ عما يقول الناس في قتل جعفر ... فإذا صحت الرواية _ وليس ما يمنع من صحتها _ كان فيه ربح للعباسة وأي ربح...

وليس العجب أن يغلط الناس في مثل هذه القضايا ، وإنما العجب أن لا يغلطوا ، فما في قصور الملوك أشياء محجوبة عنهم ، وهذا الجاحظ وهو من هو في مكانته من صحة الرواية وتمحيصها ، وقد عاش في الجيل الذي عاشت فيه دولة الرشيد والبرامكة ، يذكر في كتابه "المحاسن و الأضداد" أن الرشيد قتل أخته "علية" . فهو يقول : إن الرشيد خرج ليلا يزور اسحق الموصلي فكان من جملة ما اسمعه من غناء جواريه .. غناء جاريتين غنتاه :

بنـــى الحب علـــى الجور فلو	أنصف المعشوق فيـــه لسمج
ليس يستحسن في وصف الهوى	عاشق يكـــــثر ترديد الحجج

ثـــــــــم ...

إن يمس حبلك بعد طول تواصل	خلقا ويصبح بيتكم مهجـــورا
فلقد أراني والجديـــــد إلى بلى	زمنا بوصلك راضيا مسرورا

فيسأل الجاريتين : لمن هذه الإلحان ؟؟ وبعد تلكؤ ، تسران

إليه أنها "لعلية" يعود إليها ويطلب منها أن تغنيه بهذه الأصوات .. ثم يأمر الجواري أن ينصرفن ، ويضع على وجهها وسادة حتى تفارق الحياة وفي الغد يدخل عليه خادمه مسرور ويعزيه بها ، وكان بعد ذلك يبكي الرشيد ويتمثل عند ذكرها :

قبر عزيز علينـــــــا لو أن من فيه يهدى
أسكنت قرة عينـــــي ومهجة النفي لحـــدا
ما أن أرى لـــي عليها من التوجـــــع بـــدا

_ ويرويها أي الحكاية _ ثانية "الأغاني" فلا ينهيها بموت ، وإنما يكتفي بالالتفات إلى الموصلي وليقول له :_

وما ضرك أن لا تكون خليفة ؟

ومن تحصيل الحاصل التدليل على أن "علية " عاشت معززة مكرمة ومدللة حتى عصر المأمون ..

لم ترتبط رواية الجاحظ بجعفر ثان ، فسقطت ، لا يذكرها إلا من يمر بها في مظانها في كتب الجاحظ ومن نقل عن الجاحظ ، واخالها لو ارتبطت "بجعفر آخر " لبقي من يناقش فيها ولو قام ألف دليل على حياتها ومعاصرتها للامين والمأمون . ولم لا ، وبين الجاحظ ومن روى عن الطبري فوارق في الشهرة والمنطق وصحة الاستدلال ؟! الجاحظ علم ، وذاك نكرة .

وسيرة الرشيد أيضا _ في قضية العباسة _ تنفى كل النفي عند

من يعايشه في التاريخ . أن يقع منه مثل هذه الهفوة : أن يجمع أخته وصديقه بعقد يعرف بطلانه .

وأخيرا لم كانت هذه الإشاعة ..؟ لا أظن هذا السؤال يحتاج إلى إجابة بعد الذي تقدم ، فهي حديث عامة ، إذ هي ادنى الأحاديث لمن لا يحب أن يعمل منطقه وعقله . وجاء رجوع الرشيد من مكة عندما أوقع في البرامكة ، فقالوا اطلع ورأى أولادها فيها ... ولست اعزو هذه الحكاية إلى مصدر فارسي ، لأنه ليس فيها ما يشرف العنصر الفارسي ، صديق ائتمنه صديقه على عرضه ، فلم يكن أمينا ، فأيهما الخائن وأيهما أكثر ملامة ؟...

وأجل أيضا جماعة العلويين عن الوقوع بمثل ذلك ، لان التجني على الإعراض ليس من شيمهم ، وما بينهم وبين البرامكة كان عامرا بالود .

وإذا انتفت حكاية العباسة ، ولم تكن هي السبب في مقتل جعفر ، فهل كان السبب في حكاية الطالبي ؟ سنرى !..

* * *

يحيى الطالبي

يجمع المؤرخون على أن من أسباب النكبة الرئيسية ، إطلاق جعفر يحيى الطالبي الثائر على الرشيد ، وقد أودعه عنده . ومنهم من يغالي فيذهب إلى أن هذا هو السبب ولا سبب غيره . وموجز ما يذكرون عند ربط قتل جعفر بهذا الحادث ، أن الرشيد عقب أن استنزل هذا الثائر على أمان اشهد عليه جلة قواده ورجاله ، أودعه عند جعفر البرمكي ... وفي ليلة احضر جعفر هذا الثائر إلى مجلسه ليسأله عن أمر ، وبعد حديث قال له يحيى : اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد "صلى الله عليه وسلم" ، فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا . فرق له قلبه وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله .

قال : اخشى أن أؤخذ بعد قليل ، فبعث معه بمن أوصله إلى مأمن .. وصل الخبر إلى خصمه الألد ، الفضل بن الربيع ، من عين كانت له عليه ، فحمله إلى الرشيد فتظاهر الرشيد بعدم المبالاة وزجره قائلا : وما يدريك أن فعل هذا عن أمري .

وعلى المائدة الملكية ، سأل الرشيد جعفر عن يحيى هذا فقال له هو عندي، فحلفه "بحياته عليه" ففطن و وكان من أدق خلق الله فطانة فقال أطلقته وحياتك ، لأني لست اخشى عليك منه شرا ، فتبسم الرشيد ، وقال : ما عدوت الذي بنفسي . ولما ذهب جعفر اتبعه نظرا يقدح نارا ، وقال قتلني الله بسيف الهدى على الضلالة إن لم أقتلك ! ثم قتله . ولم لا يقتله ويبر بهذا القسم،

والقضية تتعلق بسياسة الملك التي لا يجوز التفريط فيها والمساس بها ، والدالة يجب أن لا تصل إلى هذا الحد ولا دونه بكثير ؟..

هذا عرض لما في التاريخ ، على اختلاف في العرض والأسلوب وتعاقب في المناظر والشكول لا يمس الجوهر ..

وقد يكون هذا كافيا لتعليل القتل والنكبة ، لو أن الباحث يطمئن إلى هذه الحكاية ... إن الشك فيها يتناولها من أساسها ، يتناول حبس الطالبي عند جعفر ، وإطلاقه إياه ، بل أكثر كما سيرى القارئ .

يذكر التاريخ أن يحيى هذا هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب . نسب في الذؤابة . نهد إلى الديلم عام ١٧٢ هـ ، ثم قويت شوكته ، وظهر أمره في عام ١٧٦ هـ فأقض أمره مضجع الرشيد ، فاختار من رجاله لقتاله والقضاء على دعوته الفضل بن يحيى فأشخصه إليه ومعه خمسون ألفا في العدة السابغة ، وما زال الفضل يداوره ويواتر كتبه في ظروف صعبة قاسية ، حتى استنزله على أمان من الرشيد اشهد عليه أهل بيته وأكابر قواده ..

حمدت يد الفضل في هذه الثورة وأسلوب إخمادها دون اراقة دم زكي من آل البيت ، مما أثار إعجاب الناس وعطفهم . وسر الرشيد كثيرا واحتفى بمقدم قائده وخرج لاستقباله ، وأذن للشعراء في مديحه حتى كثروا في بابه فوكل إلى أبان اللاحقي ترتيب جوائزهم ، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ظفرت فلا شلت يد برمكيـــــة	رتقت بها الصدع الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه	فكفــــوا وقالوا ليس بالمتلائـــم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة	من المجد باق ذكرها في المواسم

وسلم الفضل إلى الرشيد الثائر يحيى فدفع به إلى يحيى بن خالد فكان يبره ويكرمه كل الإكرام حتى كان يقوم بنفسه علـــى خدمته ، وتلك أرفع مراتب الإجلال والاحترام ..

ثم بدا للرشيد أن يتخلص منه ، فأراد أن يحتال على الأمان ، فشاور به الفقهاء ، فلم يفته بنقضه سوى القاضي أبو البحتري .

فكان الرشيد يحضر هذا الطالبي إلى مجلسه ويطيل مناقشته وتهديده ، وفي أحيان يرق له قلبه فيتركه كالطليق ، ثم يعود إلى السجن أو مثله فعل به هذا ثلاث مرات وأوصل إليه مالا كثيرا ..

وتجيء إحدى هذه المرات في أعقاب ملاحاة _ في مجلس الرشيد _ بين يحيى هذا وبكار من نسل الزبير ... كان هذا الزبيري كارها له ولعائلته وينقل عنه ما يسوؤه ، وفي هذا المجلس اشتد عليه يحيى فذكر للرشيد أن هذا الزبيري جاءه يراوده على البيعة ، وبقصيدة يرثي أخاه محمدا فأنكر الزبيري ذلك ، فتلا يحيى القصيدة ، ثم طلب إليه أن يحلف _ على الإنكار _ يمينا غموسا بالغة .

_ أخرج من حول الله وقوته وأدخل في حول نفسي وقوتها .. إني ما أتيتك مراودا على البيعة وراثيا لأخيك ..

أراد أن يتخلص الزبيري من هذه اليمين ولكن الرشيد أرغمه على ذلك ، فأقسم وفرائصه ترتعد ..

ومن المصادفات العجيبة الحسنة أن الزبيري توفي بذات اليوم ، فقال الناس: آية لآل البيت . ورق قلب الرشيد فأطلقه ، ثم جاء به ثالثة إلى السجن فتوفي به بعد قليل ..

ليذكر القارئ إننا في عام ١٧٦، وبيننا وبين النكبة إحدى عشرة سنة فمتى توفي يحيى .. وأين توفي ؟

توفي في سجن الرشيد وفي العام الذي ذكرناه _ ١٧٦ _ على ما يذكره جميع المؤرخين ... يذكره هؤلاء المؤرخون الذين يذكرون أن من أسباب النكبة إطلاق هذا الطالبي وإبلاغه مأمنه ، وذلك عند الكلام عن مقتل جعفر ..

ذكر الطبري أن الوفاة كانت بعد شهر من حادث الزبيري ، وذكر ما يشتم منه إن الوفاة كانت بالسم ..

وابن الخطيب في تاريخ بغداد يتعرض إلى الوفاة بشيء من التفصيل يروي عن ادريس بمحمد قال :

" لقد مات جدي يحيي بن عبد الله بن الحسن في حبس أمير المؤمنين هارون، وقد سمعت جدي علي بن زيد يقول : " خرجنا في جنازته فبعث أمير المؤمنين إلى رجل من العلويين ليصلي

عليه فقال : ما كنت لأصلي على جسد خرج منه روحه وأمير المؤمنين ساخط عليه لولا انه أمرني ..

ويذكر ابن الأثير أن الوفاة كانت بالسجن ..

ويقول المسعودي أن الرشيد قتله شر قتلة ، بنى عليه بيتا من جص وحجر.

ويقول ابن خلدون أن الرشيد حبسه حتى هلك في حبسه .
ويذكر ابن الطقطقي أن الرشيد قتله شر قتلة .

ويذكر غيرهم ممن تعرضوا لهذه الحادثة مثل ذلك ... إذن لا اختلاف في أن الوفاة كانت في سجن الرشيد ، وعقب استنزاله على العهد وقدوم الفضل به بغداد .

فمتى أطلقه جعفر وأداه إلى مأمنه ؟ . لم يتعرض المؤرخون لشيء من ذلك عند الكلام على سجنه ووفاته في عام ١٧٦ هـ ، وإنما تعرضوا لذلك وذكروه عند الكلام على مقتل جعفر وأسباب النكبة في عام ١٨٧ هـ .

وبين العامين لا نجد ذكرا ليحيى في التاريخ غير حكاية مبهمة غامضة ذكرها الطبري ، وهي أن رجلا عرض للرشيد وهو يناظر يحيى بن خالد وقال له : نصيحة يا أمير المؤمنين ، ثم ذكر له بعد أن ارفض عقد المجلس انه رأى بحلوان وفي خان من خاناتها يحيى بن عبد الله الطالبي وانه تثبت من معرفته ولما

ذكر له من أوصافه ما أيقن معه الرشيد أن الرجل يتكلم صدقا كافأه سرا وضربه على اتفاق معه إمام الناس وقال له هذا جزاء من يسعى بأولياء أمير

المؤمنين . ولم يعرف الناس سببا لهذا حتى كانت النكبة .. فمتى كانت هذه الحكاية ؟

الطبري لم يذكر تاريخا لها ولم يذكر ما صنع الرشيد ليجيء بيحيى هذا ؟ هل تركه حرا ؟ لا نظن الطبري يقصد هذا لأنه يناقض نفسه إذ يقول إن الرجل توفي بسجن الرشيد وهو بعد يناقض كل المؤرخين . ولا سبيل إلى تعليل ما ذكره الطبري إلا أن يكون خبر هذا الإطلاق قد وقع مرة بين هذه الثلاث المرات التي سجن بها يحيى ، وأطلق ثم سجن الثالثة ولم يكن له منها خلاص بغير الموت ، وفي هذا نكون قد عللنا تعليلا صحيحا هذا التناقض الذي يكاد يقع فيه المؤرخون : إطلاق الثائر من جهة ، ووفاته في سجن الرشيد من جهة ثانية . لأنه من غير المعقول أن يبقى هذا الرجل طليقا من بعد عام ١٧٦ هـ ولا نراه في حياة الرشيد ولا بعد وفاته ..

ويوشك أن يكون هذا هو الصدق والواقع ..

ويؤيد هذا رواية وردت في الأغاني عن هذه الحادثة ، فقد روى اسحق الموصلي عن أبيه قال : دخلت على الفضل بن يحيى وقد بلغ الرشيد خبر اطلاقه يحيى بن عبد الله بن الحسن .. الطالبي وقد كان أمره في قتله فلم يظهر انه قتله ، فسأل عن خبره انه لم يقتله فسأله وأين هو ؟ قال أطلقته لأنه سألني بحق الله ورسوله وقرابته منك ، وحلف انه لن يحدث حدثا وانه

يجيئني متى طلبته . فأطرق ساعة ثم قال امض بنفسك حتى تجيئني به الساعة ، فخرج ״.. فدخلت عليه مهنئا بالسلامة وقلت له ما رأيت اثبت من جنانك ولا اصح من رأيك فيما جرى وأنت كما قال اشجع :

بديهتـــــــــه وفكرته سواء	إذا ما نابه الخطب الكبير
واحزم ما يكون الدهــر رأيا	إذا أعيا المشاور و المشيــر
و صـــــدر فيه للعلم اتساع	إذا ضاعت بما تحوي الصدور

وما أشبه أن يكون هذا هو كل الواقع :

وليلاحظ القارئ كلمة الفضل "وانه يجيئني متى طلبته " وأمر الرشيد له : "امض بنفسك حتى تجيئني به الساعة ..." ولا شك انه جاءه به ليتوفى بسجنه كما يقول المؤرخون ..

بقي شيء آخر : هل الذي أطلقه الفضل أم جعفر ؟

نرجح انه الفضل ، وذلك _أولا _ لان الروايات لم تذكر أيهما ، وذكرت رواية أبو الفرج انه الفضل ، وظاهر أننا نستثني الروايات التي ذكرت جعفر عند حديث النكبة _ وثانيا _ لان الفضل هو الذي تولى قتاله ، وهو الذي جاء به بأمان الرشيد ينوي قتله فعمد لهذه الحيلة وهي إخفاؤه لعل وعسى أن ينجو به _ وثالثا _ وقد لا يبدو هذا سببا وجيها إلا عند من يدرس حياة الفضل وجعفر _ انه بأخلاق الفضل امثل ، فقد كان يدل

بمروءته ادلالا شديدا ، ويقول متمثلا : لو علمت أن الماء يضر بمروءتي لما شربته .

ولا يمنع أن يكون الفضل بـن الربيع هو الذي انهى خبر اطلاقه إلى الرشيد ، ولعل يحيى الطالبي إذ يقول للرشيد : وهذا _ يشير إلى الفضل_ والله من آفاتك _ يشير إلى فعلته في ايصال الخبر _ ..

ولما نكب البرامكة واخذ الناس يفتشون عن أسباب ، ذكروا حكاية الطالبي فقالوا هي هي .. ثم ألصقوها بجعفر .. ولما خطر لهم انها بعيدة عن النكبة ، قالوا إن الرشيد هم وعزم على نكبتهم قبل نكبتهم بعشر سنين .. أي عند وقوع حادث يحيى هذا ..

إن إطلاق يحيى لا يحسب على البرامكة في باب السيئات في عام وقوعه فلعل الرشيد قد نسيه عقب أن جاؤوه به ، بل نسيه وعفت حسنات الجماعة على سيئة احدهم ، وله فيها معاذيره فهو من بعد هذا العام يمد لهم في السلطان ويبيح لهم حمى قلبه وحبه ، ولكنه يحسب عليهم في باب السيئات التي تربو على جملة حسنات في عام ١٨٧ ، حينما تمتلئ نفسه ألما منهم وينفض من قلبه بقيات حبهم وصبابات الوفاء لهم .. انه آنئذ يذكر حديث الطالبي ويرى فيه جريمة نكراء ، انه يذكر غيره من أحاديث ومواقف رآها حسنة في حينها ، ولكنه في يومه يرى فيها كل الشناعة ... أليس هو إنسانا ينظر اليوم بعين البغض .. ويالها من عين تبدي المساويا .

وإذا لم يكن الطالبي هو سبب النكبة ولم تك العباسة ، فما عسى تكون الأسباب ؟ هل هي استبدادهم بالملك والمال ، أو هل هي هذه الطائفة في البلاط تتسقط أخبارهم وتصابح الخليفة وتماسيه وتلح عليه بالنميمة والكيد ؟ ليس ما يمنع أن يكون ذلك ، شرط أن تفصل النكبة عن مقتل جعفر ويضاف إليها أشياء ..

* * *

العزل والسجن

حادثان

لم يفصل التاريخ حادث القتل عن حادث العزل والسجن ، بل دمج المؤرخون الحادثين ، وتكلموا عن الاثنين كحادث واحد .
ولو فصلوهما لكاد أن يكون حادث العزل والسجن مفهوم الدوافع والأسباب ، ولاقتصرت البلبلة على مقتل جعفر . فعزل الوزراء وسجنهم واستصفاء أموالهم على النحو الذي تم عليه أمــر البرامكة شيء شائع في التاريخ العباسي ، كما رأى القارئ في مبحث الوزارة ، أما قتلهم وتصليبهم وحرق جثثهم بعد طول العشرة والصداقة المثالية النادرة ، كما وقع لجعفر فأمر لم يقع في الفترة الأولى لهذه الدولة لغيره . وهو إن لم يكن واضح السبب بينه فيحتاج إلى كثير من التساؤل .

وفي حديث العزل يمكن أن يقال إن البرامكة بلغوا من الغنى الحد الذي تتناهى إليه آمال الملوك ، فهم يعيشون العيشة التي يعيشها الخليفة أو تزيد عليها ترفا ، وهم يبذخون ويهبون وينعمون على قبائل وشعوب :

اظلت عطاياه نزارا وأشرفـــــت   على حمير في دارهـــا ومراد
ترى الناس أفواجا إلى باب داره   كأنهم رجـــــــلا دبى وجراد
فيوما لإلحاق الفقير بذي الغنى   ويوما رقاب بوكرت بحصاد
فما هو إلا الدهــر يأتي بصرفه   على كل من يشقى به ويعادي
فما هو إلا الدهــر يأتي بصرفه   على كل من يشقى به ويعادي

وابتنوا من فضل هذا الغنى القصور ذوات الرياش الغالية وشاد جعفر قصره _الجعفري _ الذي استهوله هو واستعظم شأنه قبل أن يستعظم الناس والخليفة ذلك . فهو يقول واني اعلم انه ليس من بناء مثلي ولكني قلت سأذكر له كيفما تقلبت الأحوال . إن بقي لي فهو قصر جعفر وان شره إليه السلطان فهو قصر جعفر ..
ونصحه الأوفياء من أصحابه أن يهبه للأمير الذي في حجره المأمون ...
وتقول الرواية الغربية انه فعل ذلك وانه سكنه في أواخر أيامه .

ولما قتل انتقلت ملكيته _ فعلا _ إلى المأمون ، وكان مـــن أحب قصوره إليه ، وعرف "بالقصر المأموني " ، ثم وهبه المأمون إلى الحسن بن سهل فعرف "بالقصر الحسني " ، وقد بلغت تكاليف هذا القصر عشرين ألف درهم أي مليونا وربع مليون دينار ، وهو مايزيد على نصف مليون جنيه بعملة اليـــوم ، ولكنها تعادل المليون بقوتها الشرائية .

وقد يكون في هذا الرقم مبالغة ، ولكنها ليست بالمبالغة غير المقبولة على كل حال ، فالقصر الذي يستعظمه عم الخليفة ابراهيم المهدي ويقول له إني لاآمن أن يقول واش إلى الخليفة في غد : إذا بلغت هذه نفقات قصره ، فاين صلاته وهباته وأين نفقاته الاخر ؟ وقد ذكر الشعر هذا القصر :

وقد بني الـــدار التي مـــــا بني م
الفرس لها مثيــــلا ولا الهنــــــــــــد

الدار والياقــوت حصباؤها وتربهـــا العنبر والنـــد

وليس هذا القصر القصر الوحيد الذي شادوا واعلوا بنيانه ثم اقتنوا الضياع التي حسدهم الخليفة ذاته عليها اذ لم ير لأولاده مثلها .

هذه واحدة اثار مثلها من وزراء غضب غير الرشيد من الخلفاء ، وتجيء الثانية وهي مشاركتهم له في السلطان ، فبلاطه يعج بهم . ذكروا انه كان في قصره من ولد يحيى نحو من خمسة وعشرين رئيسا ، بين صاحب سيف وصاحب قلم .

وقد رأينا كثرة الزحام على أبوابهم ، وتردد ذوي الحاجات عليهم واصطناعهم الرجال وتنصيبهم الولاة والملوك _ في قديم الزمان طبعا _ تنكب لاقل من هذا ، فما بالك إذ لهج الناس له و اكثروا من قولهم أن هؤلاء هم اصحاب السلطة الفعلية ، وان الخليفة لا حول له معهم ولا طول :

قل لامين الله في ارضـــه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكمـــا حد
امرك مردود إلى أمـــــره وامره ليس لـــه رد

وما عسى يصنع مثل هذا في الرشيد ذي العاطفة ؟

وتجيء الثالثة وهي كثرة الناقمين عليهم والحاسدين لهم في البلاط ، وعلى رأس هذه الفئة الرجل الداهية الذي عاش في قصور الخلائف واطلع فيما اطلع عليه كيف تنكب الوزراء وكيف تحاك الدسيسة _ الفضل بن الربيع . لقد قوي ابوه على اكفأ

وزراء الدولة العباسية عبيد الله ، فقضى على سلطانه . ومن عجائب المصادفة إن الأبوين يحيى البرمكي والربيع بن يونس ، صديقان يمحضان لبعضهما النصح .. ونجا الربيع بفضل نصح يحيى من نقمة الهادي ولما يكد .

أكل الحسد من البرامكة قلب الفضل ، حتى ليمر بمسناة جعفر فيركل برجله لبنة في الماء ، ويلتفت إلى صديق يسايره ويقول له . أرأيت ؟ فيقول هذا الصديق الغر : وما رأيت ؟ لبنة لا قيمة لها . فيقول له كالهازئ : ولكن يا حبيبي هل يفيدهم رميها في الماء ؟.

ولا يستطيع البرامكة ولا يستطيع الفضل ان يكتموا هذا الذي يضطرهم في صدورهم من بغضاء حتى في مجلس الرشيد .. كما رأى القارئ الكريم إذ يقول للفضل : يا لقيط . وقد ذكر بعض المؤرخين والمعللين لأسباب هذه النكبة إن الفضل كان يرأس الحزب العربي الذي ينقم علـــى البرامكة فارسيتهم . والفارسية والعربية لا نقف عندهما طويلا ، لأننا نضطر إن نعود القهقرى لنرى في نكبة وزراء هذه الفترة _ اغراق في الخيال واختراع للأسباب ..

ويطلب الرشيد إلى جعفر أن يكتب للفضل بالولاية على الجزيرة فيطاوله وبرأي أبيه ، فلا تتم له الولاية .

وهذا الرجل نصب عمره للكيد إليهم والدس عليهم ،

حتى يقول بعض الرواة إن أسباب نكبتهم كلها التفريط بالفضل بن الربيع .

ويلتفت بالفضل كثير من رجالات العرب ، فهذا يزيد بن مزيد الشيباني ، يغرون عليه الرشيد فيقولون له انه يطاول الوليد بن طريف الشاري في القتال لغرض في نفسه ، فيتهدده الرشيد فيحجبه برأي البرامكة ، بيد أن هذا الفارس العربي يقسم أنـــه لن يبرح صهوة جواده حتى يأذن له الرشيد بالمثول بين يديه ، فيأذن له بعد لأي .. وهؤلاء أحوال جعفر من بني قحطبة ينقمون عليهم أيضا ويكونون في صف أعدائهم .

لقد كثر الكائدون .. فضجوا بهم :

ما يريد الناس منا	ما ينام الناس عنا
إنما همـــــهم أن	يظهروا ما قد دفنا

وكان هذا لا يكفي ، فهذه العائلة يدب بين أفرادها شيء من الجفاء ، فمحمد ابن خالد يكيد لهم عند الرشيد حتى يستثنيه الرشيد مما عمهم به ، والفضل يذكر كاتب أخيه بالسوء ، وجعفر يصنع مثل صنعه . ويسأل الرشيد الأصمعي مسألة ، فيقول له : على الخبير يا أمير المؤمنين سقطت ، فيجيبه الفضل : بل سقطت أنت .. لم يرد أن يعيب أدب الأصمعي ، وإنما أراد إن يعيب أدب أخيه جعفر لأنه هو الذي أوصله إلى الرشيد .

أو تكفي كل هذه العوامل إلى عزلهم وسجنهم واستصفاء

أموالهم ؟ .. تكفي ، وما جاء بعدها فهو زيادة .. ومـــن هذه الزيادة ما يتصل بالنفس وطبيعتها من ذلك حديث الملل وشهوة الاستبدال الذي ذكره الجاحظ فهؤلاء البرامكة استولوا علـــى الرشيد فتى وظل في عشرتهم سبعة عشر عاما .

كانوا يرون أنهم اصحاب ملك الرشيد لفضلهم في تثبيت قواعده ، فلولا يحيى لما وصل إليه .

وكانوا يرون وهم يديرون هذا الملك أنهم يتفضلون على الخليفة إذ اراحوه ووفروا عليه وقته وهناوته .. وكانوا يصابحونه ويماسونه ويمضون الليل معه ويدخلون انفسهم في كل كبيرة وصغيرة من شؤون ملكه وقصره .

انه يريد أن يرى أين هو في رأي نفسه وصحبه ورعيته وان يريهم أن الأمر أمره .

ويريد أن يرى وجوها جديدة ..

وأخيرا لا بد من قتل جعفر ، وليس بالاستطاعة أن يقتله ثم يركن إليهم بعدها .

* * *

مقتل جعفر

لم قتل جعفر

إن يكن السبب ثراء وجاها واستبداد في السلطان ، فذنبه كذنوب اهليه يكفي معه العزل والسجن ، وهي العقوبة التي وسعتهم .

احديث سياسة ؟ لم يكن جعفر الوزير الذي يدير شؤون الملك ، وإنما كان ابوه ، وكان يجيء بعد أبيه اخوه الفضل لأنه اكبر منه سنا .. ومنزلة جعفر ومكانته استمدت من حديث الملك وادارته .. كان للناس عذرهم في اختلاق حكاية العباسة وإثارة قضية الطالبي .

وإذا كان التاريخ قد اتسع ولا يزال يتسع لشتى المتناقضات والظنون الخادعة ، فليحتمل ظنا قد يكون خادعا ووهما قد يكون باطلا .

هذا الظن هو أن مصير جعفر لم يتقرر في مجلس الحكم وإنما تقرر في مجلس المنادمة .

لا تفسير لهذا الحقد الذي بقي في نفس الرشيد بعد قتله ، فأمر بإحراق جثته مع الخشبة التي صلب عليها ، إلا أن جعفر ارتكب غلطة أو غلطات رأى فيها الرشيد مساسا بشرفه ، وإذا كان حديث العباسة مستحيلا ، فحديث الجواري غير مستحيل .

كان مجلس المنادمة مملوءا بهذه الزهرات من الجواري الحسان ، وكن لا يحتجبن في هذه المجالس ، يغنين ويرقصن ، وكان من هؤلاء الجواري من تخف على قلب الرشيد ، وتأخذ بيدها العناية فتصبح أم ولد .

وذكروا فيما ذكروا _ من عجائب تصاريف القدر _ أن الربيع بن يونس قتل بسم في مجلس الهادي ، لأنه أهدى جارية كانت ملك يمينه للمهدي فولدت الهادي ، فكان يحز بنفسه أن كانت كزوجة للربيع ، وفي مجلس المنادمة ، ينام الحذر تحت تأثير شتى العوامل من نبيذ ونغم وجمال _ فهل بدرت من جعفر نظرة جارحة إلى جارية أو من جارية إليه ؟. أي شيء يمنع هذا ؟ إن المؤرخين لم يروا امتناع هذا ، لا من جوار خلقن للغزل والحب ويهدين كما تهدى الفاكهة ، وإنما من العباسة وفي جلالها وصونها واحتجابها عن هذه المجالس .

إن حياة الجواري التي مررنا بها تجعل تصور وقوع مثل هذا سهلا جدا .

وفي مجلس المنادمة يقع مع الحب والغزل أدلال ومفاخرة ، فهل وقع مثل هذا ؟.

لقد طوى الرشيد صدره على سره ، فقال لو علم به قميصي لمزقته ، ومعذور هو ، فما كان لمثله أن يقول: غمزني جعفر في شرفي وكبريائي .

إن شدة محافظة الرشيد على سره ، وتكتمه وعدم البوح به ، ومغالاته في هذا تكاد تدني هذا السر منا ، فلم كل هذا التستر إن لم يكن مساسا بكبريائه ؟ وهل يكون غير حديث جوار ، واهانة أو مثلها له أمام هؤلاء الجواري ؟

والمؤرخون لا ينكرون وقوع مثل هذا الادلال من أولاد يحيى ، فيقولون انه ظهر منهم إدلال لا تحتمله نفوس الملوك . وإذا كان الادلال ممكنا في حالة الصحو ، ففي حالة تناول الشراب هو أكثر إمكانا ، وهو من جعفر اقرب منه من غيره ، لدخوله في المنادمة ، ولا به ذكاء يعجل به فيقول الكلمة الصائبة لو تروى بها لرأى من الصواب أن يعجل بها .

يذكرون انه قال لمن نصحه ، أن يهب شيئا من ضياعه لأولاد الرشيد : لقد شره ابن عمكم وداخله طمع الهاشميين ، وما استولى على الأمر إلا بفضلنا ، وان عاد لمثلها ليكونن وبالا عليه ...
قد يصدق انه قال ذلك وقد لا يصدق ، ولكن تصور وقوعه في مثل هذه الغلطات لا يستغرب .. لو نقل هذا القول عن يحيى ، في هدوئه وعقله ، لما استحق من الباحث أن يلتفت إليه ، بله أن يناقش فيه ..

وإذا كان هذا هو الصدق والواقع في مقتل جعفر ، ولم يكن الرشيد قادرا على احتمال ما فرط منه من غزل وادلال عليه ، دون أن يحمل نفسه وعاطفته أشياء يثقل عليه ، ولا تستطيعها طبيعته وعاطفته ، فهل نكب البرامكة من اجله ؟
يقول ابن خلكان : وقتل الرشيد جعفر ونكب العائلة لأجله .

ولا هذا كله ، لأننا نرى الرشيد يشتد عليهم _ بعض الحين _ ويتهمهم بالميل عنه إلى عبد الملك بن صالح ، الذي ظن به (الرشيد أنه) يحدث في نفسه بالخلافة ، فلو كان جعفر هو السبب لما كان هـذا الاتهام . والرشيد يقول : لو وثقت بهم لأعدتهم إلى الحكم ، وليس معنى هذا أيضا انه وقد زال السبب الذي نكبهم من اجله ، وهو جعفر ، فليس ما يمنع أن يعودوا لما كانوا عليه ، وإنما معناه انه وقد شفى غيظه وسكنت الزوبعة التي أثارها في نفسه شتى العوامل ، ومنها حديث جعفر ، واستصفاء أموالهم بعد أن طمع فيها ، وداخل نفسه الحسد من اجلها فليس ما يمنعه لو وثق من خلوص نياتهم وصفاء طوياتهم ، أن يعود فيصل المضي الحلو العزيز بهذا الحاضر الذي أخذت ترين عليه سحابة هم وادكار موجع .

ويلوح لي أن يحيى خاصة كان ينظر _ لما علم ووعي_ لابنه هـذه الخاتمة ، فسهل بن هرون يقول حينما أنبئ بمقتل ابنه ، قال : أو قد فعل ؟ كأنما كان ينتظر شيئا . ويكتب للرشيد من السجن يقول له : " أما ما أصبت من ولدي فبذنبه ولا اخشى عليك الخطأ في أمره " .. وفي هذا من يحيى أكثر مـن استدرار رحمة ... ولا تجد الفضل وأباه يتعرضان للحديث عنه في السجن ..

ولا حاجة للوقوف على حديث العلويين طويلا، وان الرشيد إنما نكبهم وقتل منهم لميلهم لهذه العائلة _ فان يكن هنالك من ميل فهو ميل روحي ، لم يتجسد عملا إلا في حادث الطالبي .. والفضل لفرط مروءته كان كأنما يرى نفسه مسؤولا عنه ، وقد جاء به على أمان الرشيد وأمانه هو .

ويذكرون أن الرشيد ولى جعفر خراسان قبل قتله بمديدة ، هي أشهر ، ثم عزله قبل الشخوص إليها ، خيفة أن يحدث حدثا ..
ويخشون من الوقوع في التناقض ، وهو أن الرشيد ما زال يخشى من ولايته على خراسان ، فكيف ولاه وهو على نية قتله ؟ فيستدركون ويقولون : أراد الرشيد أن يطمئنه ليركن إليه بهذه الولاية ، ولم يعزله وإنما طلب إليه التريث بالشخوص إليها ...

والحق في هذه الولاية والعزل _ بعد عشرين يوما _ انها كانت في عام ١٨٠ هـ قبل النكبة بما يزيد على الست سنوات .. على أن حديث خراسان جاء _على ما أرجح _ من أن الرشيد وقد اخذ لا يستطيع أن يكتم ما بنفسه خشي أن يفوته بالهرب إلى خراسان ، فهو يقول بعد مقتله :

ولو أن جعفرا هاب أسباب الردى   لنجـــا به منها طمر ملجـــم
ولكان من حذر المنية حيــث لا   يرجو اللحاق بـــه العقاب القشعم
لكنـــه لما أتـــــــاه يومـــه   لم يدفع الحدثان عنه منجـــــــم

ولم يهرب جعفر دون أبيه وإخوته ؟ والجواب لان له ذنبه الخاص وكان هذا الذنب حريا أن يدفعه إلى تلمس وجوه النجاة والهرب بدمه .. ولم يكن هذا الذنب الخاص هو العباسة أو الميمونة أو الخافتة ، لأنها لو كانت هي ورأى انحراف الرشيد عنه ، لفطن " وكان من أدق خلق الله فطانة " ، إلى أن الرشيد قد علم بالأمر ، ولكان له ، والحياة عزيزة لا تقوم بثمن ، أن يعمل رأيه للخروج من بغداد ، ولكنه ، والأسباب جوار وحديث مجالس فيها غمزات تتناسى أحاديثها ، ظن أن حبه ومكانته عند الرشيد ستتكفلان بمحو مثل هذه الهفوات .

وهكذا تم المقدور ودالت هذه الدولة ، التي كيفما كانت فقد سعد بها الكثير من الناس ، في اسعد أيام العرب والإسلام .

ومضت الأيام وتعاقبت الأهلة ، وسكنت الشياطين التي أثارت العاطفة ، فاخذ الرشيد _ وقد اقبل الفضل على القصر وأهمل ما دونه ، حتى وجد بعد موت الرشيد أن هنالك أربعة آلاف خريطة من الرسائل الواردة من أنحاء المملكة ، لم تفض طينتها _ يفتقد مواضعهم فيقول : " حملونا على نصائحنا وكفاتنا و أوهمونا بأنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا شيئا " . ثم يتمثل :

اقلوا علينا لا أبـــــــا لأبيكم   من اللوم أو شدو المكان الذي سدوا

ومضت الأيام وتعاقبت الأهلة ، وشعر الرشيد بقوته كاملة ، فلا أمر إلا أمره ولا نهي إلا نهيه .

ثم تصرمت سنون ، وهدأت الفورة وسكنت الثورة ، وعاد اللجي الصاخب ماء مترقرقا صافيا تداعبه نسائم الذكريات ...
فكان يتأوه لذكراهم ويئن .
ثم رقت العاطفة وسمت النفس وصفت ، فسمحت وصفحت عن ذنوب ، عن كل الذنوب ، فكان ينادي : واجعفراه !

ويجوع الإنسان فيه إذ ينضو عن ذاته بهارج الملك ، ومطارف الجاه ، فيشتاق مخلوقا يناجيه ، وصديقا يطارحه أشواقه ، ويعري نفسه أمامه .
فيصيح : واصديقاه !..

المشتمل

الموضوع	الصفحة

طبع في مطابع الدستور